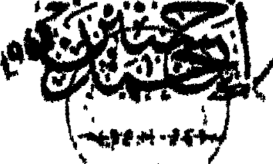
تهذيب الأخلاق لابن مسكويه

﴿ قال في كشف الظنون ﴾ .

تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق للشيخ أبي علي أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ ويشتمل على ست مقالات أوله ﴿ اللهم انا نتوجه اليك الخ ﴾ وهو كتاب مفيد في علم الاخلاق اه

طبع على نفقة مكتبة المعارف بشارع بين السورين بمصر لصاحبها



[illegible]

[illegible]

رفائيل وكيل المعارف العمومية سابقاً

(طبعة مطبعة كردستان العلمية لصاحبها فرج الله زكي الكردي)
(بالجمالية بمصر سنة ١٣٢٩ هجرية)


تهذيب الأخلاق لابن مسكويه

تهذيب الأخلاق لابن مسكويه

﴿قال في كشف الظنون﴾

تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق للشيخ أبي علي أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ ويشتمل على ست مقالات أوله ﴿اللهم انا نتوجه اليك الخ﴾ وهو كتاب مفيد في علم الاخلاق هـ

طبع على نفقة مكتبة المعارف لشارع بني الصور بمصر لصاحبها

صححه أحد الفضلاء وقوبل على نسخة مخطوطة التي اعتني بتصحيحها وتبويبها والتعليق عليها المرحوم علي بك رفاعة وكيل المعارف المصرية سابقا

(بمطبعة كردستان العلمية لصاحبها فرج الله زكي الكردي)
بجمالية بمصر سنة ١٣٢٩ هجرية



اللهم انا نتوجه اليك ونسمى نحوك ونجاهد نفوسنا في طاعتك ونركب الصراط المستقيم الذى نهجته الى مرضاتك فاعنا بقوتك واهدنا بعزتك واعصمنا بقدرتك وبلغنا الدرجة العليا برحمتك والسعادة القصوى بجودك ورأفتك انك على ماتشاء قدير

﴿ مطلب ﴾

الغرض من تأليف هذا الكتاب

(قال) أحمد بن محمد بن مسكويه غرضنا فى هذا الكتاب أن نحصل لانفسنا خلقا تصدر به عنا الافعال كلها جميلة وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمى والطريق فى ذلك أن نعرف أولا نفوسنا

ماهي وأي شيء هي ولاي شيء أوجدت فينا أعني كمالها وغايتها وما قواها وملكاتها التي اذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العلية * وما الاشياء العائقة لنا عنها وما الذي يزكيها فتفلح وما الذي يدسيها [١] فتخيب فان الله عز من قائل يقول (ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)

ولما كان لكل صناعة مبادي عليها تبتنى وبها تحصل وكانت تلك المبادي مأخوذة من صناعة أخرى وليس في شيء من هذه الصناعات أن تبين مبادي أنفسها كان لنا عذر واضح في ذكر مبادي هذه الصناعة على طريق الاجمال و لاشارة بالقول الوجيز وان لم يكن مما قصدنا له ، واتباع، بعد ذلك مما توخيناه من اصابة الخلق الشريف الذي يشرف شرفا ذاتيا حقيقيا لا على طريق العرض الذي لا ثبات له ولا حقيقة أعني مكتسب المال والمكاثرة * أو السلطان والمغالبة أو الاصطلاح والمواضعة [٢]

فنقول وبالله التوفيق قولا نبين به أن فينا شيئا ليس بجسم

(١) دسه تدسية اغواه وافسده اه

(٢) من معني المواضعة الموافقة في الامر وهو المقصود هنا

ولا بجزء من جسم ولا عرض ولا محتاج في وجوده الى قوة جسمية بل هو جوهر بسيط غير محسوس بشيء من الحواس ثم نبين مامقصودنا منه الذي خلقنا له وندبنا اليه فنقول

(مطلب)

الاستدلال على أن النفس ليست بجسم ولا جزأ منه ولا حالا من أحواله بل هي شيء آخر مفارق له بجوهره واحكامه وخواصه وأفعاله

انا لما وجدنا في الانسان شيأ ما يضاد أفعال الاجسام واجزاء الاجسام بحده وخواصه وله أيضا أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يشاركه في حال من الاحوال وكذلك نجده يباين الاعراض ويضادها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منه للاجسام والاعراض انما هي من حيث كانت الاجسام اجساما والاعراض اعراضا حكمنا بان هذا الشيء ليس بجسم ولا جزأ من جسم ولا عرضا وذلك انه لا يستحيل ولا يتغير وايضا فانه يدرك جميع الاشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص

(وبيان ذلك) ان كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الاولي الا بعد مفارقته الصورة

الاولى مفارقة تامة

(مثال ذلك) ان الجسم اذا قبل صورة وشكلا من الاشكال كالتثليث مثلا فليس يقبل شكلا آخر من التربيع والتدوير وغيرهما الا بعد ان يفارقه الشكل الاول وكذلك اذا قبل صورة نقش أو كتابة أوأى شيء كان من الصور فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس الا بعد زوال الاولى وبطلانها ألبتة فان بقي فيه شيء من رسم الصورة الاولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل تختلط به الصورتان فلا يخلص له إحداهما على التمام (مثال ذلك) اذا قبل الشمع صورة نقش في الخاتم لم يقبل غيره من النقوش الا بعد أن يزول عنه رسم النقش الاول وكذلك الفضة اذا قبلت صورة الخاتم وهذا حكم مستقيم مستمر في الاجسام ونحن نجد أنفسنا تقبل صور الاشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات على التمام والكمال من غير مفارقة للاولى ولا معاقبة ولا زوال رسم بل يبقى الرسم الاول تاما كاملا وتقبل الرسم الثاني أيضاً تاما كاملا ثم لاتزال تقبل صورة بعد صورة أبدا دائما من غير أن تضعف أو تقصر في وقت من الاوقات عن قبول مايرد ويطرأ عليها من

الصور بل تزداد بالصورة الاولى قوة على مايرد عليها من الصورة الاخرى وهذه الخاصة مضادة لخواص الاجسام ولهذه العلة يزداد الانسان فهما كلما ارتاض وتخرّج في العلوم والآداب فليست النفس اذن جسما *

فاما انها ليست بعرض فقد تبين من قبل ان العرض لا يحمل عرضا لان العرض في نفسه محمول أبدا موجود في غيره لا قوام له بذاته وهـذا الجوهر الذى وصفنا حاله هو قابل أبدا حامل أتم وأكمل من حمل الاجسام للاعراض فاذن النفس ليست جسما ولا جزأ من جسم ولا عرضا * وأيضا فان الطول والعرض والعمق الذي به صار الجسم جسما يحصل فى النفس في قوتها الوهمية من غير أن تصير به طويلة عريضة عميقة ثم تزداد فيها هذه المعانى أبدا بلا نهاية فلا تصير بها أطول ولا أعرض ولا أعمق بل لا تصير بها جسما ألبتة ولا اذا تصورت أيضاً كيفيات الجسم تكيفت بها أعني اذا تصورت الالوان والطعوم والروائح لم تتصور بها كما تتصور الاجسام ولا يمنع بعضها قبول بعض من اضدادها كما يمنع في الجسم بل تقبلها كلها في حالة واحدة بالسواء وكذلك حالها فى المعقولات فانها تزداد بكل

معقول تحصله قوة على قبول غيره دائما أبداً بلا نهاية وهذه حالة مقابلة لاحوال الاجسام وخاصة في غاية البعد من خواصها وأيضا فان الجسم قواه لاتعرف العلوم الا من الحواس ولا تميل الا اليها فهي تتشوقها بالملابسة والمشابكة كالشهوات البدنية ومحبة الانتقام والغلبة وبالجملة كل مايحس ويوصل اليه بالحس * والجسم يزداد بهذه الاشياء قوة ويستفيد منها تماما وكمالا لانها مادته واسباب وجوده فهو يفرح بها ويشتاق اليها من أجل انها تتم وجوده وتزيد فيه وتمده فاما هذا المعنى الآخر الذي سميناه نفسا فانه كلما تباعد من هذه المعاني البدنية التي أحصيناها وتداخل الى ذاته وتخلى من الحواس باكثر مايمكن ازداد قوة وتماما وكمالا وتظهر له الآراء الصحيحة والمعقولات البسيطة وهذا اذن ادل دليل على أن طباعه وجوهره من غير طباع الجسم والبدن وانه أكرم جوهرا وأفضل طباعا من كل مافي هذا العالم من الامور الجسمانية * وأيضا فان تشوقها[1] الى ماليس من طباع البدن وحرصها على معرفة حقائق

(١) (قوله فان تشوقها) أي النفس وان سياق العبارة يقتضي تذكير الضمير

الامور الالهية وميلها الى الامور التى هي أفضل من الامور الجسمية وايثارها لها وانصرافها عن الامور واللذات الجسمانية يدلنا دلالة واضحة انها من جوهر أعلى وأكرم جدا من الامور الجسمانية لانه لا يمكن في شيء من الاشياء أن يتشوق ماليس من طباعه وطبيعته ولا ان ينصرف عما يكمل ذاته ويقوم جوهره فاذن كانت أفعال النفس اذا انصرفت الى ذاتها فتركت الحواس مخالفة لافعال البدن ومضادة لها في محاولاتها واراداتها فلا محالة ان جوهرها مفارق لجوهر البدن ومخالف له في طبعه وأيضا فان النفس وان كانت تأخذ كثيرا من مبادى العلوم عن الحواس فلها من نفسها مباد أخر وافعال لا تأخذها عن الحواس ألبتة وهى المبادي الشريفة العالية التى تنبني عليها القياسات الصحيحة وذلك انها اذا حكمت انه ليس بين طرفى النقيض واسطة فانها لم تأخذ هذا الحكم من شيء آخر لانه أولي ولو أخذته من شيء آخر لم يكن أوليا وأيضاً فان الحواس تدرك المحسوسات فقط وأما النفس فانها تدرك أسباب الاتفاقات واسباب الاختلافات التى من المحسوسات وهي معقولاتها التي لا تستعين عليها بشيء من الجسم ولا آثار الجسم

وكذلك اذا حكمت على الحس انه صدق أو كذب فليست
تأخذ هذا الحكم من الحس لان الحس لا يضاد نفسه فيما يحكم
فيه ونحن نجد النفس العاقلة فينا تدرك شيئا كثيراً من خطأ
الحواس في مبادى أفعالها وترد عليها أحكامها من ذلك ان
البصر يخطىء فيما يراه من قرب ومن بعد * أما خطؤه في
البعيد فبادراكه الشمس صغيرة مقدارها عرض قدم وهي مثل
الارض مائة ونيفا وستين مرة يشهد بذلك البرهان العقلي
فتقبل منه وترد على الحس ما شهد به فلا يقبله واما خطؤه
في القريب فبمنزلة ضوء الشمس اذا وقع علينا من ثقب
مربعات صغار كالى الاهواز واشباهها التى يستظل بها فانه
يدرك بها الضوء الواصل الينا منها مستديرا فترد النفس العاقلة
عليه هذا الحكم وتغلطه في ادراكه وتعلم انه ليس كما يراه
وتخطىء البصر ايضا في حركة القمر والسحاب والسفينة
والشاطيء ويخطىء في الاساطين المسطرة والنخيل وأشباهها
حتى يراها مختلفة في أوضاعها ويخطىء ايضا في الاشياء التى
تتحرك على الاستدارة حتى يراها كالحلقة والطوق ويخطىء
أيضا في الاشياء الغائصة في الماء حتى يرى أن بعضها اكبر

من مقداره ويرى بعضها مكسورا وهو صحيح وبعضها معوجا وهو مستقيم وبعضها منكسرا وهو منتصب فيستخرج العقل أسباب هذه كلها من مبادى عقلية ويحكم عليها احكاما صحيحة وكذلك الحال في حاسة السمع وحاسة الذوق وحاسة الشم وحاسة اللمس أعني حاسة الذوق تغلط فى الحلو تجده مرا عند الصدي وما أشبهه وحاسة الشم تغلط كثيرا فى الاشياء المنتنة لا سيما في المنتقل من رائحة الى رائحة فالعقل يرد هذه القضايا ويقف فيها ثم يستخرج اسبابها ويحكم فيها أحكاما صحيحة والحاكم في الشيء المزيف له أو المصحح أفضل وأعلى رتبة من المحكوم عليه * وبالجملة فان النفس اذا علمت أن الحس صدق أو كذب فليست تأخذ هذا العلم من الحس ثم اذا علمت أنها قد أدركت معقولاتها فليست تعلم هذا العلم من علم آخر فانها لو علمت هذا العلم من علم آخر لاحتاجت فى ذلك العلم أيضا الى علم آخر وهذا يمرّ بلا نهاية فاذن علمها بأنها علمت ليس بمأخوذ من علم آخر البتة بل هو من ذاتها وجوهرها أعنى العقل وليست تحتاج في ادراكها ذاتها الى شيء آخر غير ذاتها ولهذا ما قيل في أواخر هذا العلم ان العقل والعاقل والمعقول شيء

واحد لا غيرية شيء يتبين في موضعه * فاما الحواس فلا تعرف ذواتها ولا ما هو موافق لها كل الموافقة كما سيتبين ايضا واذ قد تبين من هذه الاشياء بيانا واضحا ان النفس ليست بجسم ولا بجزء من جسم ولا حال من احوال الجسم وانها شيء آخر مفارق للجسم بجوهره وأحكامه وخواصه وأفعاله فنقول

﴿ مطلب ﴾

(فضيلة النفس وهي الميل والشوق الى العلوم وتفاوت الناس بتفاوتها فيها)

أما شوقها الى أفعالها الخاصة بها أعني العلوم والمعارف مع هربها من أفعال الجسم الخاصة به فهو فضيلتها وبحسب طلب الانسان لهذه الفضيلة وحرصه عليها يكون فضله وهذا الفضل يتزايد بحسب عناية الانسان بنفسه وانصرافه عن الامور العائقة له عن هذا المعنى بجهده وطاقته وقد وضح مما تقدم ما الاشياء العائقة لنا عن الفضائل أعني الاشياء البدنية والحواس وما يتصل بها فأما الفضائل انفسها فليست تحصل لنا الا بعد أن تطهر نفوسنا من الرذائل التي هي اضدادها أعني شهواتها الرديئة الجسمانية ونزواتها الفاحشة البهيمية فان الانسان اذا علم أن هذه الاشياء ليست فضائل بل هي رذائل تجنبها وكره

أن يوصف بها واذا ظن انها فضائل لزمها وصارت له عادة وبحسب التباسه وتدنسه بها يكون بعده من قبول الفضائل وقد يظهر للانسان ان هذه الاشياء التي يشتاقها البدن بالحواس ويميل اليها الجمهور أعني المآكل والمشارب والمناكح هي رذائل وليست فضائل وانه اذا عقلها في الحيوانات الاخر وجد كثيرا منها أقدر على الاستكثار منها وأحرص عليها كالخنزير والكلب وأصناف كثيرة من حيوان الماء وسباع الوحش والطير فانها أقوى وأحرص من الانسان على هذه الاشياء واكثر احتمالا لها وليست تكون بها افضل من الانسان وايضا فان الانسان اذا اكتفى من طعامه وشرابه وسائر لذاته البدنية اذا عرض عليه الاستزادة منها كما يستزاد من الفضائل أبي ذلك وعافه وتبين له قبح صورة من يتعاطاها لا سيما مع الاستغناء عنها والاكتفاء منها بل يتجاوز ذلك الى مقته وذمه بل الى تقويمه وتأديبه فينبغي الآن ان نقدم أمام ما نطلبه من سعادة النفس وفضائلها كلاما يسهل به فهم ما نريده فنقول

﴿ مطلب ﴾

اقتصار الكتاب على ذكر قوى الانسان وملكاته وافعاله الغير المشتركة مع باقي الحيوانات

كل موجود من حيوان ونبات وجماد وكذلك بسائطها أعني النار والهواء والارض والماء وكذلك الاجرام العلوية لها قوى وملكات وأفعال بها يصير ذلك الموجود هو ما هو وبها يميز عن كل ما سواه وله ايضا قوى وملكات وافعال بها يشارك ما سواه ولما كان الانسان من بين الموجودات كلها هو الذي يلتمس له الخلق المحمود والافعال المرضية وجب أن لا ننظر في هذا الوقت في قواه وملكاته وأفعاله التي بها يشارك سائر الموجودات اذ كان ذلك من حق صناعة أخرى وعلم آخر يسمى العلم الطبيعي وأما أفعاله وقواه وملكاته التي يختص بها من حيث هو انسان وبها تتم انسانيته وفضائله فهي الامور الارادية التي بها تتعلق قوة الفكر والتمييز والنظر فيها تسمى الفلسفة العملية *والاشياء الارادية التي تنسب الى الانسان تنقسم الى الخيرات والشرور وذلك ان الغرض المقصود من وجود الانسان اذا توجه الواحد منا اليه حتى يحصل

هو الذي يجب ان يسمى به خيرا أو سعيدا فأما من عاقته عنها عوائق أخر فهو الشرير الشقي فاذن الخيرات هي الامور التي تحصل للانسان بارادته وسعيه في الامور التي لها أوجد الانسان ومن أجلها خلق والشرور هي الامور التي تعوقه عن هذه الخيرات بارادته وسعيه أو كسله وانصرافه

﴿ مطلب ﴾

(تقسيم الخيرات الى شريفة وممدوحة ونافعة الى غير ذلك)

والخيرات قد قسمها الاولون الى أقسام كثيرة وذلك أن منها ما هي شريفة ومنها ما هي ممدوحة ومنها ما هي نافعة ومنها ما هي بالقوة كذلك ونعني بالقوة التهيؤ والاستعداد ونحن نعددها فيما بعد ان شاء الله تعالى وقد قدمنا القول ان كل واحد من الموجودات له كمال خاص وفعل لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء أعني انه لا يجوز ان يكون موجود آخر سواه يصلح لذلك الفعل منه وهذا حكم مستمر في الامور العلوية والسفلية كالشمس وسائر الكواكب وكانواع الحيوان كلها كالفرس والبازي وكانواع النبات والمعادن وكالعناصر البسائط التي متى تصفحت أحوالها تبين لك من جميعها صحة

ما قلناه وحكمنا به فاذن الانسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص به لا يشاركه فيه غيره وهو ما صدر عن قوته المميزة المروية فكل من كان تمييزه أصح ورويته أصدق واختياره أفضل كان أكمل في انسانيته * وكما أن السيف والمنشار وان صدر عن كل واحد منهما فعله الخاص بصورته الذي من أجله عمل فأفضل السيوف ما كان أمضى وأنضر وما كفاه يسير من الاعياء في بلوغ كماله الذي أعدّ له وكذلك الحال في الفرس والبازي وسائر الحيوانات فان أفضل الافراس ما كان أسرع حركة وأشد تيقظا لما يريده الفارس منه في طاعة اللجام وحسن القبول في الحركات وخفة العدو والنشاط فكذلك الناس أفضلهم من كان أقدر على أفعاله الخاصة به وأشدهم تمسكا بشرائط جوهره التي تميز بها عن الموجودات فاذن الواجب الذي لا مرية فيه ان نحرص على الخيرات التي هي كمالنا والتي من أجلها خلقنا ونجتهد في الوصول الى الانتهاء اليها ونتجنب الشرور التي تعوقنا عنها وتنقص حظنا منها فان الفرس اذا قصر عن كماله ولم تظهر أفعاله الخاصة به على أفضل أحوالها حط عن مرتبة الفرسية واستعمل بالاكاف كما تستعمل

الخسير وكذلك حال السيف وسائر الآلات متى قصرت ونقصت افعالها الخاصة بها حطت عن مراتبها واستعملت استعمال ما دونها والانسان اذا نقصت أفعاله وقصرت عما خلق له أعنى أن تكون أفعاله التى تصدر عنه وعن رويته غير كاملة أحرى بان يحط عن مرتبة الانسانية الى مرتبة البهيمية هذا ان صدرت افعاله الانسانية عنه ناقصة غير تامة فاذا صدرت عنه الافعال بضد ما أعدّ له أعنى الشرور التى تكون بالروية الناقصة والعدول بها عن جهتها لاجل الشهوة التى يشاركه فيها البهيمة أولا أو الاغترار بالامور الحسية التى تشغله عما عرض له من تزكية نفسه التى ينتهى بها الى الملك الرفيع والسرور الحقيقى وتوصله الى قرة العين التي قال الله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وتبلغه الى رب العالمين في النعيم المقيم واللذات التى لم ترها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر وانخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الخساسات التى لاثبات لها فهو حقيق بالمقت من خالقه عز وجل خليق بتعجيل العقوبة له واراحة العباد والبلاد ٠٠

واذ قد تبين أن سعادة كل موجود انما هى صدور أفعاله

التى تخص صورته عنه تامة كاملة وان سعادة الانسان تكون فى صدور أفعاله الانسانية عنه بحسب تمييزه ورويته وأن لهذه السعادة مراتب كثيرة بحسب الروية والمروّى فيه ولذلك قيل أفضل الروية ما كان في أفضل مروّي ثم ينزل رتبة فرتبة الى ان ينتهي الى النظر فى الامور الممكنة من العالم الحسي فيكون الناظر فى هذه الاشياء قد استعمل رويته والصورة الخاصة به التى صار من أجلها سعيدا معرّضا للملك الابدى والنعيم السرمدي فى أشياء دنيئة لا وجود لها بالحقيقة فقد تبين أيضا اجناس السعادات بالجملة واضدادها من الشقاوات وأجناسها وان الخيرات والشرور فى الافعال الارادية هى اما باختيار الافضل والعمل به واما باختيار الادون والميل اليه

﴿ مطلب ﴾

(لزوم الاجتماع والتعاون لتوزع في الافراد الخيرات والكمالات)

ولما كانت هذه الخيرات الانسانية وملكاتها التي فى النفس كثيرة ولم يكن فى طاقة الانسان الواحد القيام بجميعها وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم ولذلك وجب أن تكون أشخاص الناس كثيرة وان يجتمعوا في زمان واحد على تحصيل

هـذه السعادات المشتركة لتكميل كل واحـد منهم بمعاونة الباقين له فتكون الخيرات مشتركة والسعادة مفروضة بينهم فيتوزعونها حتى يقوم كل واحد منهم بجزء منها ويتم للجميع بمعاونة الجميع الكمال الانسي وتحصل لهم السعادات الثلاث التي شرحناها في كتاب الترتيب ولاجل ذلك وجب ان تكون الناس يحب بعضهم بعضا لان كل واحد يرى كماله عند الآخر ولولا ذلك لما تمت لهـذا سعادته فيكون اذن كل واحـد بمنزلة عضو من أعضـاء البدن وقوام الانسـان بتمام أعضاء بدنه *

﴿ مطلب ﴾

(تقسيم القوى الى ثلاث وان الفضائل تتولد عنها)

وقد تبين للناظر في أمر هذه النفس وقواها انها تنقسم الى ثلاثة أقسام أعني القوة التي بها يكون الفكر والتمييز والنظر في حقائق الامور والقوة التي بها يكون الغضب والنجدة والاقدام على الاهوال والشوق الى التسلط والترفع وضروب الكرامات والقـوة التي بها تكون الشـهوة وطلب الغـذاء والشوق الى الملاذ التي في المآكل والمشارب والمناكح وضروب اللذات

الحسية وهذه الثلاث متباينة ويعلم من ذلك ان بعضها اذا قوي أضر بالآخر وربما أبطل إحداهما فعل الأخرى وربما جعلت نفوسا وربما جعلت قوى لنفس واحدة والنظر في في ذلك ليس يليق بهذا الموضع وانت تكتفي في تعلم الاخلاق بأنها قوى ثلاث متباينة تقوى احداها وتضعف بحسب المزاج أو العادة أو التأديب * فالقوة الناطقة هي التي تسمى الملكية وآلتها التي تستعملها من البدن الدماغ * والقوة الشهوية هي التي تسمى بالبهيمية وآلتها التي تستعملها من البدن الكبد* والقوة الغضبية هي التي تسمى السبعية وآلتها التي تستعملها من البدن القلب فلذلك وجب أن يكون عدد الفضائل بحسب أعداد هذه القوي وكذلك اضدادها التي هي رذائل فمتى كانت حركة النفس الناطقة [1] معتدلة وغير خارجة عن ذاتها وكان شوقها الى المعارف الصحيحة لا المظنونة معارف وهي بالحقيقة جهالات حدثت عنها فضيلة العلم وتتبعها الحكمة ومتى كانت حركة النفس البهيمية معتدلة منقادة للنفس العاقلة غير متأبية عليها فيما تقسطه لها ولا منهمكة في اتباع هواها حدثت عنها

(١) قوله الناطقة في نسخة العاقلة اه

فضيلة العفة وتتبعها فضيلة السخاء ومتى كانت حركة النفس الغضبية معتدلة تطيع النفس العاقلة فيما تقسطه لها ولا تهيج في غير حينها ولا تحمى اكثر مما ينبغي لها حدثت عنها فضيلة الحلم وتتبعها فضيلة الشجاعة ثم يحدث عن هذه الفضائل الثلاث باعتدالها ونسبة بعضها الى بعض فضيلة هي كمالها وتمامها وهي فضيلة العدالة فلذلك أجمع الحكماء ان أجناس الفضائل أربع وهي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ولهذا لا يفتخر أحد ولا يتباهى الا بهذه الفضائل فقط فأما من افتخر بآبائه وأسلافه فلأنهم كانوا على بعض هذه الفضائل أو عليها كلها وكل واحدة من هذه الفضائل اذا تعدت صاحبها الى غيره تسمى صاحبها بها ومدح عليها واذا اقتصرت على نفسه لم يسم بها بل غيرت هذه الاسماء أما الجود فانه اذا لم يتعد صاحبه سمي صاحبه منفاقا وأما الشجاعة فان صاحبها يسمى أنفا [1] وأما العلم فان صاحبه يسمى مستبصرا ثم ان صاحب الجود والشجاعة اذا عم غيره بفضيلتيه وتعدتاه رجي باحدهما واحتشم وهيب بالاخري وذلك فى الدنيا فقط لانهما

---

(١) قوله أنفا فى نسخة زيادة غيورا بعده اه

فضيلتان حيوانيتان أما العلم اذا تعدى صاحبه فانه يرجي ويحتشم في الدنيا والآخرة لانه فضيلة انسانية ملكية واضداد هذه الفضائل الاربع أربع أيضا وهى الجهل * والشره * والجبن * والجور * وتحت كل واحد من هذه الاجناس أنواع كثيرة سنذكر منها ما يمكن ذكره فأما أشخاص الانواع فهى بلا نهاية وهي أمراض نفسانيــة تحدث منها أمراض كثيرة كالخوف والحزن والغضب وأنواع العشق الشهواني وضروب من سوء الخلق وسنذكرها ونذكر علاجاتها فيما بعد انشاءالله تعالى والذي يجب علينا الآن هو تحديد هذه الاشياء أعني الاجناس الاربعة التى تحتوى على جمل الفضائل فنقول

﴿ مطلب ﴾

(بيان الفضائل الاربع ومبدئها)

أما الحكمة فهى فضيلة النفس الناطقة المميزة وهي ان تعلم الموجودات كلها من حيث هى موجودة وان شئت فقل ان تعلم الامور الالهية والامور الانسانية ويثمر علمها بذلك ان تعرف المعقولات أيها يجب ان يفعل وأيها يجب ان يغفل * وأما العفة فهى فضيلة الحس الشهواني وظهور هذه الفضيلة

في الانسان يكون بأن يصرف شهواته بحسب الرأى أعنى أن يوافق التمييز الصحيح حتى لا ينقاد لها ويصير بذلك حرا غير متعبد لشيء من شهواته * وأما الشجاعة فهى فضيلة النفس الغضبية وتظهر فى الانسان بحسب انقيادها للنفس الناطقة المميزة واستعمال ما يوجبه الرأى فى الامور الهائلة أعنى أن لا يخاف من الامور المفزعة اذا كان فعلها جميلا والصبر عليها محمودا * فاما العدالة فهى فضيلة للنفس تحدث لها من اجتماع هذه الفضائل الثلاث التى عددناها وذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها لبعض واستسلامها للقوة المميزة حتى لا تتغالب ولا تتحرك لنحو مطلوباتها على سوم طباعها وتحدث للانسان بها سمة يختار بها أبدا الانصاف من نفسه على نفسه أولا ثم الانصاف والانتصاف من غيره وله وسنتكلم على كل واحدة من هذه الفضائل بكلام أوسع من هذا اذا ذكرنا الفضائل التى تحت كل جنس من هذه الاربع اذ كان غرضنا فى هذا الموضع الاشارة اليها بالرسوم الوجيزة ليتصورها المتعلم والذى ينبغى ان نتبع ما قدمناه ذكر أنواع هذه الاجناس وما تحت كل واحد منها فنقول

﴿ الاقسام التي تحت الحكمة ﴾

الذكاء * الذكر [1] التعقل * سرعة الفهم وقوته * صفاء الذهن سهولة التعلم * وبهذه الاشياء يكون حسن الاستعداد للحكمة فاما الوقوف على جواهر هذه الاقسام فيكون من حدودها وذلك ان العلم بالحدود يفهم جواهر الاشياء المطلوبة الموجودة دائما على حال واحد وهو العلم البرهاني الذى لايتغير ولا يدخله الشك بوجه من الوجوه والفضائل التى هى بذاتها فضائل ليست تكون فى حال من الاحوال غير فضائل فكذلك العلوم بها * أما الذكاء فهو سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس * وأما الذكر فهو ثبات صورة مايخلصه العقل أو الوهم من الامور * وأما التعقل [2] فهو موافقة بحث النفس عن الاشياء الموضوعة بقدرما هي عليه * وأما صفاء الذهن فهو استعداد النفس لاستخراج المطلوب * وأما جودة الذهن وقوته فهو تأمل النفس لما قد لزم من المقدم وأما سهولة التعلم فهى قوة للنفس وحدة في الفهم بها تدرك الامور النظرية

---

(١) الذكر بضم الذال (٢) الاحسن في تعريف التعقل ما سيأتى فى صحيفة ٣٢ من انه حسن التصور وباقي التعاريف تحتاج لتأمل اه

﴿ الفضائل التي تحت العفة ﴾

الحياء * الدعة * الصبر * السخاء * الحرية * القناعة * الدماثة * الانتظام * حسن الهدي * المسالمة * الوقار * الورع *

أما الحياء فهو انحصار النفس خوف اتيان القبائح والحذر من الذم والسب الصادق * وأما الدعة فهو سكون النفس عند حركة الشهوات * وأما الصبر فهو مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد لقبائح اللذات * وأما السخاء فهو التوسط في الاعطاء وهو ان ينفق الاموال فيما ينبغي على مقدار ماينبغي وعلى ماينبغي وتحت السخاء خاصة أنواع كثيرة نحصيها فيما بعد لكثرة الحاجة اليها * وأما الحرية فهي فضيلة للنفس بها يكتسب المال من وجهه ويعطي في وجهه ويمتنع من اكتساب المال من غير وجهه * وأما القناعة فهي التساهل في المآكل والمشارب والزينه * وأما الدماثة فهي حسن انقياد النفس لما يجمل وتسرعها الى الجميل * وأما الانتظام فهو حال للنفس تقودها الى حسن تقدير الامور وترتيبها كما ينبغي * وأما حسن الهدى فهو محبة تكميل النفس بالزينة الحسنة * وأما المسالمة فهي موادعة تحصل للنفس عن ملكة لا اضطراب فيها *

وأما الوقار فهو سكون النفس وثباتها عند الحركات التي تكون في المطالب * وأما الورع فهو لزوم الاعمال الجميلة التي فيها كمال النفس

﴿ الفضائل التي تحت الشجاعة ﴾

كبر النفس[1] النجدة * عظم الهمة * الثبات * الصبر * الحلم * عدم الطيش * الشهامة * احتمال الكد * والفرق بين هذا الصبر والصبر الذي في العفة ان هذا يكون في الامور الهائلة وذلك يكون في الشهوات الهائجة * أما كبر النفس فهو الاستهانة باليسير والاقتدار على حمل الكرائه والهوان فصاحبه أبدا يؤهل نفسه للامور العظام مع استخفافه لها * وأما النجدة فهي ثقة النفس عند المخاوف حتى لا يخامرها جزع * وأما عظم الهمة فهي فضيلة للنفس تحتمل بها سعادة الجد وضدها حتى الشدائد التي تكون عند الموت * وأما الثبات فهو فضيلة للنفس تقوى بها على احتمال الآلام ومقاومتها وفي الاهوال خاصة * وأما الحلم فهو فضيلة للنفس تكسبها الطمأنينة فلا تكون شغبة ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة * وأما السكون الذي نعني

(١) كبر بكسر ففتح اهـ

به عدم الطيش فهو اما عنـد الخصومات واما فى الحروب التى يذب بها عن الحريم أوعن الشريعة وهى قوة للنفس تقسر حركتها فى هذه الاحوال لشدتها * وأما الشهامة فهى الحرص على الاعمال العظام توقعا للاحدوثة الجميلة * وأما احتمال الـكد فهو قوة للنفس تستعمل آلات البدن في الامور الحسية بالتمرين وحسن العادة

﴿ الفضائل التي تحت السخاء ﴾

الكرم * الايثار * النبل * المواساة * السماحة * المسامحة *

أما الـكرم فهو انفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الامور الجليلة القدر الكثيرة النفع كما ينبغي وباقي شرائط السخاء التى ذكرناها * وأما الايثار فهو فضيلة للنفس بها يكف الانسان عن بعض حاجاته التى تخصه حتى يبذله لمن يستحقه * وأما النبل فهو سرور النفس بالافعال العظام وابتهاجها بلزوم هذه السيرة وأما المواساة فهى معاونة الاصدقاء والمستحقين ومشاركتهم في الاموال والاقوات * وأما السماحة فهى بذل بعض ما لا يجب * وأما المسامحة فهي ترك بعض ما يجب والجميع يكونه بالارادة والاختيار

﴿ الفضائل التي تحت العدالة ﴾

الصداقة * الالفة * صلة الرحم * المكافأة * حسن الشركة* حسن القضاء * التودد * العبادة * ترك الحقد * مكافأة الشر بالخير* استعمال اللطف * ركوب المروءة في جميع الاحوال * ترك المعاداة *ترك الحكاية عمن ليس بعدل مرضي * البحث عن سيرة من يحكى عنه العدل * ترك لفظة واحدة لا خير فيها لمسلم فضلا عن حكاية توجب حدا أو قذفا أو قتلا أو قطعا ترك السكون الى قول سفلة الناس وسقطهم *ترك قول من يكدى[1] بين الناس ظاهرا وباطنا أو يحتف في مسألة أو يلح بالسؤال فان هؤلاء يرضيهم الشيء اليسير فيقولون لاجله حسنا ويسخطهم اذا منعوا اليسير فيقولون لاجله قبيحا* ترك الشره في الكسب الحلال وترك ركوب الدناءة في الكسب لاجل العيال* الرجوع الى الله والى عهده وميثاقه عند كل قول يتلفظ به أو لحظ يلحظه أو خطرة في أعدائه وأصدقائه* ترك اليمين بالله وبشيء من اسمائه وصفاته رأسا وليس بعدل من لم يكرم زوجته وأهلها المتصلين بها وأهل المعرفة الباطنة به وخير الناس خيرهم لاهله

---

(١) يكدي بتشديد الدال وماضيه كدى كذلك أي يسأل الناس اهـ

وعشيرته والمتصلين به من أخ أو ولد أو متصل بأخ أو ولد أو قريب أو نسيب أو شريك أو جار أو صديق أو حبيب ومن أحب المال حبا مفرطا لم يؤهل لهذه المرتبة فان حرصه على جمع المال يصده عن استعمال الرأفة واستطاء الحق وبذل ما يجب ويضطره الى الخيانة والكذب والاختلاق والزور ومنع الواجب والاستقصاء واستجلاب الدانق والحبة والذرة ببيع الدين والمروءة وربما انفق أموالا جمة محبة منه للمحمدة وحسن الثناء ولا يريد بذلك وجه الله وما عنده بل يتخذها مصيدة ويجعل ذلك مكسبة ولا يعلم ان ذلك عليه سيئة ومسبة * أما الصداقة فهى محبة صادقة يهتم معها بجميع اسباب الصديق وايثار فعل الخيرات التى يمكن فعلها به وأما الالفة فهى اتفاق الآراء والاعتقادات وتحدث عن التواصل فيمتقد معها التضافر (١) على تدبير العيش وأما صلة الرحم فهى مشاركة ذوي اللحمة فى الخيرات التى تكون في الدنيا * وأما المكافأة فهى مقابلة الاحسان بمثله أو بزيادة عليه * وأما حسن الشركة فهو الاخذ والاعطاء فى المعاملات

---

(١) التضافر التعاون وتضافر القوم تعاونوا على الامر اه

على الاعتدال الموافق للجميع * وأما حسن القضاء[1] فهو مجازاة بغير ندم ولا منّ * وأما التودد فهو طلب مودات الاكفاء وأهل الفضل بحسن اللقاء وبالاعمال التى تستدعى المحبة منهم وأما العبادة فهى تعظيم الله تعالى وتمجيده وطاعته واكرام أوليائه من الملائكة والانبياء والائمة والعمل بما توجبه الشريعة وتقوى الله تعالى تتمم هذه الاشياء وتكملها

﴿ مطلب ﴾

(ان تلك الفضائل هي اوساط بين أطراف هي الرذائل وبيان)

(معنى الوسط في ذلك وتعسر اصابة الفضيلة تامة)

واذ قد تقصينا الفضائل الاول واقسامها وذكرنا أنواعها واجزاءها فقد عرفنا الرذائل التي تضاد الفضائل لانه يفهم من كل واحدة من تلك الفضائل كلها مايقابلها لان العلم بالاضداد واحد ولما كانت هذه الفضائل هى أوساطا بين أطراف وتلك الاطراف هى الرذائل وجب أن تفهم منها وان اتسع لنا الزمان ذكرناها لان وجود أساميها فى هذا الوقت متعذر وينبغى أن تفهم من قولنا ان كل فضيلة فهى وسط بين رذائل ماأنا واصفه ان

(١) في تعريف حسن القضاء تأمل اه

الارض لما كانت في غاية البعد من السماء قيل انها وسط وبالجملة المركز من الدائرة هو على غاية البعد من المحيط واذا كان الشيء على غاية البعد من شيء آخر فهو من هذه الجهة على القطر فعلى هذا الوجه ينبغي أن يفهم معنى الوسط من الفضيلة اذ كانت بين رذائل بعدها منها أقصى البعد ولهذا اذا انحرفت الفضيلة عن موضعها الخاص بها أدنى انحراف قربت من رذيلة أخرى ولم تسلم من العيب بحسب قربها من تلك الرذيلة التي تميل اليها ولهذا صعب جدا وجود هذا الوسط ثم التمسك به بعد وجوده أصعب ولذلك قالت الحكماء اصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ولزوم الصواب بعد ذلك حتى لا يخطئها أعسر وأصعب وذلك ان الاطراف التي تسمى رذائل من الافعال والاحوال والزمان وسائر الجهات كثيرة جدا ولذلك دواعي الشر أكثر من دواعي الخير ويجب أن يطلب أوساط تلك الاطراف بحسب انسان انسان ومما يجب علينا نحن فهو ان نذكر جمل هذه الاوساط وقوانينها بحسب ما يليق بالصناعة لا على ما يجب على شخص شخص فان هذا غير ممكن فان النجار والصائغ وجميع أرباب الصناعات انما يحصل في

نفوسهم قوانين وأصول فيعرف النجار صورة الباب والسرير والصائغ صورة الخاتم والتاج على الاطلاق فاما اشخاص ماقام في نفسه فانما يستخرجها بتلك القوانين ولا يمكنه تعرف الاشخاص لانها بلا نهاية وذلك ان كل باب وخاتم انما يعمل بمقدار ماينبغي وعلى قدر الحاجة وبحسب المادة والصناعة لاتضمن الا معرفة الاصول فقط واذ قد ذكرنا معنى الوسط في الاخلاق وماينبغي أن يفهم منه فلنذكر هذه الاوساط لتفهم منها الاطراف التي هي رذائل وشرور فنقول وبالله التوفيق

﴿ مطلب ﴾

(طرفى الحكمة واقسامها)

﴿أما الحكمة﴾ فهى وسط بين السفه والبله وأعني بالسفه ههنا استعمال القوة الفكرية فيما لاينبغى وكما لا ينبغي وسماه القوم الجربزة[1] وأعني بالبله تعطيل هذه القوة واطراحها وليس ينبغي أن يفهم أن البله ههنا نقصان الخلقة بل ماذكرته من تعطيل القوة الفكرية بالارادة * وأما الذكاء فهو وسط بين الخبث والبلادة فان أحد طرفي كل وسط افراط والآخر تفريط

(١) الجربزة معربة والجربزة الخب وهو الخداع اه

اعني الزيادة عليه والنقصان منه فالخبث والدهاء والحيل الرديئة هي كلها الى جانب الزيادة فيما ينبغي أن يكون الذكاء فيه وأما البلادة والبله والعجز عن ادراك المعارف فهي كلها الى جانب النقصان من الذكاء * وأما الذكر فهو وسط بين النسيان الذي يكون باهمال ماينبغي أن يحفظ وبين العناية بما لا ينبغي أن يحفظ وأما التعقل وهو حسن التصور فهو وسط بين الذهاب بالنظر في الشيء الموضوع الى أكثر مما هو عليه وبين القصور بالنظر فيه عما هو عليه * وأما سرعة الفهم فهو وسط بين اختطاف خيال الشيء من غير احكام لفهمه وبين الابطاء عن فهم حقيقته وأما صفاء الذهن فهو وسط بين ظلمة النفس عن استخراج المطلوب وبين التهاب يعرض فيها فيمنعها من استخراج المطلوب * وأما جودة الذهن وقوته فهو وسط بين الافراط في التأمل لما لزم من المقدم حتى يخرج منه الى غيره وبين التفريط فيه حتى يقصر عنه * وأما سهولة التعلم فهو وسط بين المبادرة اليه بسلاسة لاتثبت معها صورة العلم وبين التصعب عليه وتعذره

﴿ مطلب ﴾

طرفي العفة وأطراف أقسامها

﴿ وأما العفة ﴾ فهي وسط بين رذيلتين وهما الشره وخمود الشهوة وأعني بالشره الانهماك في اللذات والخروج فيها عما ينبغي وأعني بخمود الشهوة السكون عن الحركة التي تسلك نحو اللذة الجميلة التي يحتاج اليها البدن في ضروراته وهي ما رخص فيه صاحب الشريعة والعقل ﴿ وأما الفضائل التي تحت العفة ﴾ فان الحياء وسط بين رذيلتين احداهما الوقاحة والاخرى الخرق[1] وانت تقدر على ان تلحظ أطراف الفضائل الاخرى التى هى رذائل وربما وجدت لها اسماء بحسب اللغة وربما لم تجد لها اسماء وليس يعسر عليك فهم معانيها و سلوك فيها على السبيل التى سلكناها ﴿ وأما الشجاعة ﴾ فهي وسط بين رذيتين احداهما الجبن والاخري التهور اما الجبن فهو الخوف فيما لا ينبغى أن يخاف منه وأما التهور فهو الاقدام على مالا ينبغي أن يقدم عليه ﴿ وأما السخاء ﴾ فهو وسط بين رذيتين احداهما السرف والتبذير والاخرى البخل والتقتير أما التبذير فهو

(١) خرق الرجل من باب تعب اذا دهش من شدة الحياء اه

بذل مالا ينبغى لمن لا يستحق * وأما التقتير فهو منع ما ينبغي عمن يستحق ﴿ وأما العدالة ﴾ فهى وسط بين الظلم والانظلام أما الظلم فهو التوصل الى كثرة المقتنيات من حيث لا ينبغى وكما لا ينبغي وأما الانظلام فهو الاستحذاء[1] والاستحانة في المقتنيات لمن لا ينبغى كما لا ينبغي ولذلك يكون للجائر أموال كثيرة لانه يتوصل اليها من حيث لا يجب ووجوه التوصل اليها كثيرة * وأما المنظلم فمقتنياته وأمواله يسيرة جدا لانه يتركها من حيث يجب * واما العادل فهو في الوسط لانه يقتنى الاموال من حيث يجب ويتركها من حيث لا يجب فالعدالة فضيلة ينصف بها الانسان من نفسه ومن غيره من غير ان يعطي نفسه من النافع اكثر وغيره أقل واما في الضار فبالعكس وهو ان لا يعطي نفسه أقل وغيره أكثر لكن يستعمل المساواة التى هى تناسب ما بين الاشياء ومن هذا المعني اشتق اسمه أعني العدل . وأما الجائر فانه يطلب لنفسه الزيادة من

(١) الاستحذاء فى هامش النسخة الهندية ان معناه الاعطاء واما الاستحانة بالتاء فهي الاستخراج ومراده هنا بيان معني الانظلام وهو تحمل الظلم اه فليحرر

المنافع ولغيره النقصان منها وأما فى الاشياء الضارة فانه يطلب لنفسه النقصان ولغيره الزيادة منها * فقد ذكرنا الاخلاق التى هى خيرات وفضائل وأطرافها التى هى شرور ورذائل على طريق الايجاز وحددنا مايحد منها ورسمنا مايرسم وسنشرح كل واحد منها على سبيل الاستقصاء فيما بعد إن شاء الله تعالى * وينبغى ان نلخص في هذا الموضع شكارا بما لحق طالب هذه الفضائل فنقول * انا قد بينا فيما تقدم ان الانسان من بين جميع الحيوان لايكتفى بنفسه فى تكميل ذاته ولا بد له من معاونة قوم كثيرى العدد حتى يتم به حياته طيبة ويجري أمره على السداد ولهذا قال الحكماء ان الانسان مدنى بالطبع أى هو محتاج الى مدينة فيها خلق كثير لتتم له السعادة الانسانية فكل انسان بالطبع وبالضرورة يحتاج الى غيره فهو لذلك مضطر الى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة ومحبتهم المحبة الصادقة لانهم يكملون ذاته ويتممون انسانيته وهو أيضا يفعل بهم مثل ذلك فاذا كان كذلك بالطبع وبالضرورة فكيف يؤثر الانسان العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلي ويتعاطى مايرى الفضيلة في غيره فهذا القوم الذين رأوا الفضيلة فى

الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم اما بملازمة المغارات في الجبال واما ببناء الصوامع فى المفاوز واما بالسياحة فى البلدان لايحصل لهم شيء من الفضائل الانسانية التى عددناها وذلك ان من لم يخالط الناس ولم يساكنهم في المدن لاتظهر فيه العفة ولا النجدة ولا السخاء ولا العدالة بل تصير قواه وملكاته التي ركبت فيه باطلة لانها لاتتوجه لا الى خير ولا الى شر فاذا بطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة بها صاروا بمنزلة الجمادات والموتى من الناس ولذلك يظنون ويظن بهم أنهم أعفاء وليسوا بأعفاء وأنهم عدول وليسوا بعدول وكذلك فى سائر الفضائل أعنى أنه اذا لم يظهر منهم اضداد هذه التى هى شرور ظن بهم الناس انهم أفاضل وليست الفضائل اعداما بل هى أفعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم وفي المعاملات وضروب الاجتماعات ونحن انما نعلم ونتعلم الفضائل الانسانية التي نساكن بها الناس ونخالطهم ونصبر على أذاهم لنصل منها وبها الى سعادات أخر اذا صرنا الى حال أخرى وتلك الحال غير موجودة لنا الآن* تمت المقالة الاولى بحمد الله ومنه

﴿ المقالة الثانية ﴾

الخلق حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية * وهذه الحال تنقسم الى قسمين * منها مايكون طبيعيا من أصل المزاج كالانسان الذى يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب وكالانسان الذى يجبن من أيسر شيء كالذى يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه وكالذي يضحك ضحكا مفرطا من أدني شيء يعجبه وكالذى يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله * ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب وربما كان مبدوءه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا ولهذا اختلف القدماء في الخلق فقال بعضهم الخلق خاص بالنفس غير الناطقة وقال بعضهم قد يكون للنفس الناطقة فيه حظ ثم اختلف الناس أيضاً اختلافا ثانيا فقال بعضهم من كان له خلق طبيعى لم ينتقل عنه وقال آخرون ليس شيء من الاخلاق طبيعيا للانسان ولا نقول انه غير طبيعي وذلك انا مطبوعون على قبول الخلق بل ننتقل بالتأديب والمواعظ اما سريعا أو بطيئا وهذا الرأى الاخير هو الذى

نختاره لانا نشاهده عيانا ولان الرأى الاول يؤدي الي ابطال قوة التميز والعقل والى رفض السياسات كلها وترك الناس همجا مهملين والى ترك الاحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم وهذا ظاهر الشناعة جدا * وأما الرواقيون فظنوا ان الناس كلهم يخلقون اخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا بمجالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التى لا تقمع بالتأديب فينهمك فيها ثم يتوصل اليها من كل وجه ولا يفكر في الحسن منها والقبيح * وأما قوم آخرون كانوا قبل هؤلاء فانهم ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهى كدر العالم فهم لاجل ذلك أشرار بالطبع وانما يصيرون اخيارا بالتأديب والتعليم الا أن فيهم من هو فى غاية الشر لا يصلحه التأديب وفيهم من ليس هو في غاية الشر فيمكن أن ينتقل من الشر الى الخير بالتأديب من الصبا ثم بمجالسة الاخيار وأهل الفضل * فاما جالينوس فانه رأى أن الناس فيهم من هو خير بالطبع وفيهم من هو شرير بالطبع وفيهم من هو متوسط بين هذين ثم أفسد المذهبين الاولين اللذين ذكرناهما * أما الاول فبأن قال ان كان كل الناس

اخيارا بالطبع وانما ينتقلون الى الشر بالتعليم فمن الضرورة أن يكون تعلمهم الشر وراما من أنفسهم واما من غيرهم فان تعلموا من غيرهم فان المعلمين الذين علموهم الشر أشرار بالطبع فليس الناس اذاً كلهم أخيارا بالطبع وان كانوا تعلموه من أنفسهم فاما ان يكون فيهم قوة يشتاقون بها الى الشر فقط فهم اذاً أشرار بالطبع واما أن يكون فيهم مع هذه القوة التي تشتاق الى الشر قوة أخرى تشتاق الى الخير الا ان القوة التي تشتاق الى الشر غالبة قاهرة للتي تشتاق الى الخير وعلى هذا أيضا يكونون أشرارا بالطبع * وأما الرأي الثاني فانه أفسده بمثل هذه الحجة وذلك انه قال ان كان كل الناس أشرارا بالطبع فاما أن يكونوا تعلموا الخير من غيرهم أو من انفسهم و نعيد الكلام الاول بعينه * ولما أفسد هذين المذهبين صحح رأي نفسه من الامور البينة الظاهرة وذلك انه ظاهر جدا أن من الناس من هو خير بالطبع وهم قليلون وليس ينتقل هؤلاء الى الشر ومنهم من هو شرير بالطبع وهم كثيرون وليس ينتقل هؤلاء الى الخير ومنهم من هو متوسط بين هذين وهؤلاء قد ينتقلون بمصاحبة الاخيار ومواعظهم الى الخير وقد ينتقلون بمقاربة أهل الشر وإغوائهم

الى الشر * وأما ارسطوطاليس فقد بين في كتاب الاخلاق
وفي كتاب المقولات ايضا ان الشرير قد ينتقل بالتأديب الى
الخير ولكن ليس على الاطلاق لانه يرى أن تكرير المواعظ
والتأديب وأخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة لا بدّ أن
يؤثر ضروب التأثير في ضروب الناس فنهم من يقبل التأديب
ويتحرك الى الفضيلة بسرعة ومنهم من يقبله ويتحرك الى
الفضيلة بابطاء ونحن نؤلف من ذلك قياسا وهو هذا كل خلق
يمكن تغيره ولا شيء مما يمكن تغيره هو بالطبع فاذاً لا خلق
ولا واحد منه بالطبع والمقدمتان صحيحتان والقياس منتج في
الضرب الثاني من الشكل الاول أما تصحيح المقدمة الاولى
وهي ان كل خلق يمكن تغيره فقد تكلمنا عليه وأوضحناه
وهو بين من العيان ومما استدللنا به من وجوب التأديب
ونفعه وتأثيره في الاحداث والصبيان ومن الشرائع الصادقة
التي هي سياسة الله لخلقه * وأما تصحيح المقدمة الثانية
وهي انه لا شيء مما يمكن تغيره هو بالطبع فهو ظاهر أيضا
وذلك انا لا نروم تغيير شيء مما هو بالطبع أبدا فان أحدا
لا يروم أن يغير حركة النار التي الى فوق بان يعودها الحركة

الى أسفل ولا أن يعود الحجر حركة العلوّ يروم بذلك أن يغير حركة الطبيعة التي الى أسفل ولو رامه ما صح له تغير شيء من هذا ولا ما يجري مجراه أعني الامور التى هى بالطبع فقد صحت المقدمتان وصح التأليف في الشكل الاول وهو الضرب الثاني منه وصار برهانا * فاما مراتب الناس في قبول هذه الآداب التى سميناها خلقا والمسارعة الى تعلمها والحرص عليها فانها كثيرة وهي تشاهد وتعاين فيهم وخاصة في الاطفال فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذى انتهى في نشئه وكماله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الحيل والافعال المضادة لما في طبعه وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الادب أو نفورهم عنه أو ما يظهر في بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ومن الاحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الاخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم ليسوا على رتبة واحدة وان فيهم المتواني والممتنع والسهل السلس والفظ العسر والخير والشرير

والمتوسطون بين هذه الاطراف فى مراتب لا تحصى كثرة واذا أهملت الطباع ولم ترض بالتأديب والتقويم نشأ كل انسان على سوم طباعه وبقى عمره كله على الحال التى كان عليها فى الطفولية وتبع ما وافقه فى الطبع إما الغضب واما اللذة واما الزعارة[1] واما الشره واما غير ذلك من الطباع المذمومة والشريعة هى التى تقوم الاحداث وتعودهم الافعال المرضية وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ الى السعادة الانسية بالفكر الصحيح والقياس المستقيم وعلى الوالدين أخذهم بها وبسائر الآداب الجميلة بضروب السياسات من الضرب اذا دعت اليه الحاجة أو التوبيخات ان صدتهم أو الاطماع فى الكرامات أو غيرها مما يميلون اليه من الراحات أو يحذرونه من العقوبات حتى اذا تعودوا ذلك واستمروا عليه مدة من الزمان كثيرة أمكن فيهم حينئذ أن يعلموا براهين ما أخذوه تقليدا وينبهوا على طرق الفضائل واكتسابها والبلوغ الى غاياتها بهذه الصناعة التي نحن بسبيلها والله الموفق (وللانسان فى ترتيب هذه الآداب وسياقها أولا أولا الى الكمال الاخير

(١) الزعارة بتشديد الراء شراسة الخلق اه

طريق طبيعي يتشبه فيها بفعل الطبيعة) وهو أن ينظر الى هذه القوى التي تحدث فينا أيها أسبق الينا وجودا فيبدأ بتقويمها ثم بما يليها على النظام الطبيعي وهو بين ظاهر وذلك ان أول ما يحدث فينا هو الشيء العام للحيوان والنبات كله ثم لا يزال يختص بشيء شيء يتميز به عن نوع نوع الى أن يصير الي الانسانية فلذلك يجب أن نبدأ بالشوق الذي يحصل فينا للغذاء فنقومه ثم بالشوق الذي يحصل فينا الى الغضب ومحبة الكرامة فنقومه ثم بآخرها الشوق الذي يحصل فينا الى المعارف والعلوم فنقومه وهذا الترتيب الذي قلنا انه طبيعي انما حكمنا فيه بذلك لما يظهر فينا منذ أول نشوئنا أعني أنا نكون أولا أجنة ثم اطفالا ثم ناسا كاملين وتحدث فينا هذه القوى مرتبة فاما ان هذه الصناعة هي أفضل الصناعات كلها أعني صناعة الاخلاق التي تعنى بتجويد أفعال الانسان بما هو انسان فيتبين مما أقول * لما كان للجوهر الانساني فعل خاص لا يشاركه فيه شيء من موجودات العالم كما بيناه فيما تقدم وكان الانسان اشرف موجودات عالمنا ثم لم تصدر عنه افعاله بحسب جوهره وشبهناه بالفرس الذي اذا لم تصدر عنه أفعال الفرس

على التمام استعمل مكان الحمار بالا كاف وكان وجوده أروح له من عدمه وجب أن تكون الصناعة التى تعني بتجويد أفعال الانسان حتى تصدر عنه افعاله كلها تامة كاملة بحسب جوهره ورفعه عن رتبة الاخس التى يستحق بها المقت من الله والقرار في العذاب الاليم أشرف الصناعات كلها وأكرمها وأما سائر الصناعات الاخر فراتبها من الشرف بحسب مراتب جوهر الشيء الذي تستصلحه وهذا ظاهر جدا من تصفح الصناعات لان فيها الدباغة التى تعنى باستصلاح جلود البهائم الميتة وفيها صناعة الطب والعلاج التي تعنى باستصلاح الجواهر الشريفة الكريمة وهكذا الهمم المتفاوتة التى ينصرف بعضها الى العلوم الدنيئة وبعضها الى العلوم الشريفة واذا كانت جواهر الموجودات متفاوتة في الشرف فى الجماد والنبات والحيوان أما في الحيوان فكجوهر الديدان والحشرات اذا قيس الى جوهر الانسان وأما فى جوهر الموجودات الاخر فظاهر لمن أراد أن يحصيها فالصناعة والهمة التى تصرف الى اشرفها أشرف من الصناعة والهمة التى تصرف الى الادون منها * ويجب ان يعلم ان اسم الانسان وان كان يقع على أفضلهم وعلى أدونهم

فان بين هذين الطرفين أكثر مما بين كل متضادين من البعد وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شيء خيرا من الف مثله الا الانسان وقال عليه الصلاة والسلام الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة واحدة وقال الناس كاسنان المشط وفي بعضها كاسنان الحمار وانما يتفاضلون بالعقل ولا خير في صحبة من لا يعرف لك من الفضل ما تعرف له وفي نظائر هذه اشياء كثيرة تدل على هذا المعني وان الشاعر الذي قال

ولم ار امثال الرجال تفاوتا

الى المجد حتى عدّ الف بواحد

وان كان عنده انه قد بالغ فانه قد قصر والخبر المروى عن النبي عليه الصلاة والسلام اني وزنت بامتي فرجحت بهم أصدق وأوضح وليس هذا في الانسان وحده بل في كثير من الجواهر الاخر وان كان في الانسان اكثر واشد تفاوتا فان بين السيف المعروف بالصمصام وبين السيف المعروف بالكهام تفاوتا عظيما وكذلك الحال في التفاوت الذي بين الفرس الكريم وبين البرذون المقرف فمن أمكنه ان يرقي بالصناعة أدون هذه الجواهر مرتبة الى اعلاها فاشرف به وبصناعته

ما أكرمه وأكرمها * فاما الانسان من بين هذه الجواهر فهو مستعد بضروب من الاستعدادات لضروب من المقامات وليس ينبغي أن يكون الطمع في استصلاحه على مرتبة واحدة وهذا شيء يتبين فيما بعد بمشيئة الله وعونه الا أن الذى ينبغي أن يعلم الآن ان وجود الجوهر الانساني متعلق بقدرة فاعله وخالقه تبارك وتقدس اسمه وتعالى فاما تجويد جوهره فمفوض الى الانسان وهو معلق بارادته فاعرف هذه الجملة الى أن تلخص في موضعها ان شاء الله تعالى وقد تقدمنا في صدر هذا الكتاب قلنا ينبغي أن نعرف نفوسنا ماهي ولأي شيء هي ثم قلنا ان لكل جوهر موجود كمالا خاصا به وفعلا لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء وقد بينا ذلك غاية البيان في الرسالة المسعدة واذا كان ذلك محفوظا فنحن مضطرون الى أن نعرف الكمال الخاص بالانسان والفعل الذى لا يشاركه فيه غيره من حيث هو انسان لنحرص على طلبه وتحصيله ونجتهد في البلوغ الى غايته ونهايته * ولما كان الانسان مركب لم يجز أن يكون كماله وفعله الخاص به كمال بسائطه وأفعالها الخاصة بها والا كان وجود المركب باطلا كالحال في الخاتم

والسرير فاذاً له فعل خاص به من حيث هو مركب وانسان لا يشاركه فيه شيء من الموجودات الاخر فافضل الناس أقدرهم على اظهار فعله الخاص وألزمهم له من غير تلون فيه ولا اخلال به في وقت دون وقت واذا عرف الافضل فقد عرف الانقص على اعتبار الضد * فالكمال الخاص بالانسان كمالان وذلك أن له قوتين احداهما العالمة والاخري العاملة فلذلك يشتاق باحدى القوتين الى المعارف والعلوم وبالاخرى الى نظم الامور وترتيبها وهذان الكمالان هما اللذان نص عليهما الفلاسفة فقالوا الفلسفة تنقسم الى قسمين الى الجزء النظري والجزء العملي فاذا كمل الانسان بالجزء العملي والجزء النظري فقد سعد السعادة التامة. أما كماله الاول باحدي قوتيه أعني العالمة وهي التي يشتاق بها الى العلوم فهو أن يصير في العلم بحيث يصدق نظره وتصح بصيرته وتستقيم رويته فلا يغلط في اعتقاد ولا يشك في حقيقة وينتهي في العلم بامور الموجودات على الترتيب الى العلم الالهي الذي هو آخر مرتبة العلوم ويثق به ويسكن اليه ويطمئن قلبه وتذهب حيرته وينجلي له المطلوب الاخير حتى يتحد به وهذا الكمال قد بينا الطريق اليه واوضحنا سبله

في كتب أخر * وأما الكمال الثاني الذي يكون بالقوة الاخرى أعني القوة العاملة فهو الذي نقصده في كتابنا هذا وهو الكمال الخلقي ومبدؤه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها حتى لا تتغالب وحتى تتسالم هذه القوى فيه وتصدر أفعاله كلها بحسب قوته المميزة منتظمة مرتبة كما ينبغي وينتهي الى التدبير المدني الذي يرتب الافعال والقوى بين الناس حتى تنتظم ذلك الانتظام ويسعدوا سعادة مشتركة كما كان ذلك في الشخص الواحد فاذاً الكمال الاول النظري منزلته منزلة الصورة والكمال الثاني العملي منزلته منزلة المادة وليس يتم احدهما الا بالآخر لان العلم مبدأ والعمل تمام والمبدأ بلا تمام يكون ضائعا والتمام بلا مبدإ يكون مستحيلا وهذا الكمال هو الذي سميناه غرضا وذلك ان الغرض والكمال بالذات هما شيء واحد وانما يختلفان بالاضافة فاذا نظر اليه وهو بعد في النفس ولم يخرج الى الفعل فهو غرض فاذا خرج الى الفعل وتم فهو كمال وكذلك الحال في كل شيء لان البيت اذا كان متصورا للباني وكان عالما باجزائه وتركيبه وسائر أحواله كان غرضا فاذا أخرجه الى الفعل وتممه كان كمالا فقد صح من جميع ما قدمناه ان الانسان

يصير الى كماله ويصدر عنه فعله الخاص به اذا علم الموجودات كلها أى يعلم كلياتها وحدودها التى هى ذواتها لا اعراضها وخواصها التى تصيرها بلا نهاية فانك اذا علمت كليات الموجودات فقد علمت جزئياتها بنحو ما لان الجزئيات لا تخرج عن كلياتها فاذا كانت هذا الكمال فتممه بالفعل المنظوم ورتب القوى والملكات التى فيك ترتيبا علميا كما سبق علمك به فاذا انتهيت الى هذه الرتب فقد صرت عالما وحدك واستحققت أن تسمى عالما صغيرا لان صور الموجودات كلها قد حصلت في ذاتك فصرت انت هي بنحو ما ثم نظمتها بافعالك على نحو استطاعتك فصرت فيها خليفة لمولاك خالق الكل جلت عظمته ثم تخطئ فيها ولم تخرج عن نظامه الاول الحكمى [1] فتصير حينئذ عالما تاما والتام من الموجودات هو الدائم الوجود والدائم الوجود هو الباقي بقاء سرمديا فلا يفوتك حينئذ شيء من النعيم المقيم لانك بهذا الكمال مستعد لقبول الفيض من المولى دائما أبدا وقد قربت .

(١) الحكمى نسبة الى الحكمة والقياس كما قال السيد تسكين الكاف لكن المستعمل تحريكها بالفتح اه

منه القرب الذي لايجوز أن يحول بينك وبينه حجاب وهذه هى الرتبة العليا والسعادة القصوى ولولا ان الشخص الواحد من أشخاص الناس يمكنه تحصيل هذه المنزلة في ذاته وتكميل صورته بها واتمام نقصانه بالترقي اليها لكان سبيله سبيل أشخاص الحيوانات الاخر أو كسبيل أشخاص النبات في مصيرها الى الفناء والاستحالة التي تلحقها والنقصانات التي لاسبيل الى تمامها ولا ستحال فيه البقاء الابدى والنعيم السرمدي والمصير الي ربه ودخول جنته ومن لا يتصور هذه الحالة ولا يهتدي الى علمها من المتوسطين فى العلم يقع له شكوك فيظن ان الانسان اذا انتقض تركيبه الجسماني بطل وتلاشى كالحال فى الحيوانات الاخر وفي النبات فحينئذ يستحق اسم الالحاد ويخرج عن سمة الحكمة وسنة الشريعة وقد ظن قوم ان كمال الانسان وغايته هما في اللذات الحسية وانها هي الخير المطلوب والسعادة القصوى وظنوا ان جميع قواه الاخر انما ركبت فيه من أجل هذه اللذات والتوصل اليها وأن النفس الشريفة التى سميناها ناطقة انما وهبت له ليرتب بها الافعال ويميزها ثم يوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية الاخيرة هى حصولها له على

النهاية والغاية وظنوا أيضا ان قوي النفس الناطقة أعني الذكر والحفظ والروية كلها تراد لتلك الغاية قالوا وذلك أن الانسان اذا تذكر اللذة التي كانت حصلت له بالمطاعم والمشارب والمناكح اشتاق اليها وأحب معاودتها فقد صارت منفعة الذكر والحفظ انما هي اللذة وتحصيلها ولاجل هذه الظنون التي وقعت لهم جعلوا النفس المميزة الشريفة كالعبد المهين وكالاجير المستعمل في خدمة النفس الشهوية لتخدمها في المآكل والمشارب والمناكح وترتبها لها وتعدها اعدادا كاملا موافقا وهذا هو رأي الجمهور من العامة الرعاع وجهال الناس السقاط والى هذه الخيرات التي جعلوها غاياتهم تشوقوا عند ذكر الجنة والقرب من بارئهم عز وجل وهي التي يسألونها ربهم تبارك وتعالى في دعواتهم وصلواتهم واذا خلوا بالعبادات وتركوا الدنيا وزهدوا فيها فانما ذاك منهم على سبيل المتجر والمرابحة في هذه بعينها كانهم تركوا قليلها ليصلوا الى كثيرها وأعرضوا عن الفانيات منها ليبلغوا الى الباقيات الا انك تجدهم مع هذا الاعتقاد وهذه الافعال اذا ذكر عندهم الملائكة والخلق الاعلى الاشرف وما نزههم الله عنه من هذه القاذورات علموا بالجملة أنهم أقرب

الى الله تعالى وأعلى رتبة من الناس وانهم غير محتاجين الى شيء
من حاجات البشر بل يعلمون أن خالقهم وخالق كل شيء الذى
تولى ابداع الكل هو منزه عن هذه الاشياء متعال عنها غير
موصوف باللذة والتمتع مع التمكن من ايجادها وأن الناس
يشاركون في هذه اللذات الخنافس والديدان وصغار الحشرات
والهمج من الحيوان وانما يناسبون الملائكة بالعقل والتمييز ثم
يجمعون بين هذا الاعتقاد والاعتقاد الاول وهذا هو العجب
العجيب وذلك انهم يرون عيانا ضروراتهم بالاذى الذي يلحقهم
بالجوع والعرى وضروب النقص وحاجاتهم الى مداواتها بما
يدفعها عنهم فاذا زالت آثارها وعادوا الى حال السلامة منها التذوا
بذلك ووجدوا للراحة لذة ولا يشعرون أنهم اذا اشتاقوا الى
لذة المآكل فقد اشتاقوا أولا الى ألم الجوع وذلك انهم ان لم
يؤلموا بالجوع لم يلتذوا بالاكل وهكذا الحال في سائر اللذات
الاخر الا ان هذا الحال في بعضها أظهر منها في بعض وسنتكلم
على ان صورة الجميع واحدة وان اللذات كلها انما تحصل
للملتذ بعد آلام تلحقه لان اللذة هى راحة من ألم وان كل
لذة حسية انما هى خلاص من ألم أو أذى في غير هذا

الموضع * وسيظهر عند ذلك ان من رضى لنفسه بتحصيل
اللذاة البدنية وجعلها غايته وأقصى سعادته فقد رضى باخس
العبودية لاخس الموالى لانه يصير نفسه الكريمة التى يناسب
بها الملائكة عبدا للنفس الدنيئة التي يناسب بها الخنازير والخنافس
والديدان وخسائس الحيوانات التى تشاركه فى هذا الحال
وقد تعجب جالينوس في كتابه الذي سماه باخلاق النفس من
هذا الرأى وكثر استجهاله للقوم الذين هذه مرتبتهم من العقل
الا انه قال ان هؤلاء الخبثاء الذين سيرتهم أسوأ السيرة واردؤها
اذا وجدوا انسانا هذا رأيه ومذهبه نصروه ونوهوا به ودعوا
اليه ايوهموا بذلك انهم غير منفردين بهذه الطريقة لانهم يظنون
انهم متى وصف أهل الفضل والنبل من الناس بمثل ماهم عليه
كان ذلك عذرا لهم وتمويها على قوم آخرين في مثل طريقتهم
وهؤلاء هم الذين يفسدون الاحداث بايهامهم ان الفضيلة هى ما
تدعوهم اليه طبيعة البدن من الملاذ وأن تلك الفضائل الاخر الملكية
اماأن تكون باطلة ليست بشيء ألبتة واماأن تكون غير ممكنة
لاحد من الناس والناس مائلون بالطبع الجسدانى الى الشهوات
فيكثر اتباعهم وتقل الفضلاء فيهم * واذا تنبه الواحد بعد الواحد

منهم الى ان هذه اللذات انما هي لضرورة الجسد وأن بدنه مركب من الطبائع المتضادة أعنى الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة وأنه انما يعالج بالأكل والشرب أمراضا تحدث به عند الانحلال لحفظ تركيبه على حالة واحدة أبدا ما أمكن ذلك فيه وأن علاج المرض ليس بسعادة تامة والراحة من الالم ليست بغاية مطلوبة ولا خير محض وأن السعيد التام هو من لا يمرض له مرض ألبتة وعرف مع ذلك أيضا أن الملائكة الابرار الذين اصطفاهم الله بقربه لا تلحقهم هذه الآلام فلا يحتاجون الى مداواتها بالاكل والشرب وأن الله تعالى منزه متعال عن هذه الاوصاف عارضوه بأن بعض البشر أشرف من الملائكة وأن الله تعالى أجل من أن يذكر مع الخلق وشاغبوه وسفهوا رأيه وأوقعوا له شبها باطلة حتى يشك في صحة ما تنبه اليه وأرشده عقله اليه والعجب الذى لا ينقضى هو أنهم مع رأيهم هذا اذا وجدوا واحدا من الناس قد ترك طريقتهم التى يميلون اليها واستهان باللذة والتمتع وصام وطوى واقتصر على ما انبتت الارض عظموه وكثر تعجبهم منه وأهلوه للمراتب العظيمة وزعموا انه ولى الله وصفيه وانه شبيه بالملك وانه أرفع

طبقة من البشر ويخضعون له ويذلون غاية الذل ويعدون أنفسهم أشقياء بالاضافة اليه والسبب في ذلك هو انهم وان كانوا من أفن [1] الرأى وسفاهته على ماترى فان فيهم من تلك القوة الاخري الكريمة المميزة وان كانت ضعيفة ما يريهم فضيلة ذوي الفضائل فيضطرون الى اكرامهم وتعظيمهم *

﴿ مطلب ﴾

(بيان مراتب القوي وشرفها)

واذا كانت القوي ثلاثا كما قلنا مرارا فأدونها النفس البهيمية وأوسطها النفس السبعية وأشرفها النفس الناطقة والانسان انما صار انسانا بأفضل هذه النفوس أعني الناطقة وبها شارك الملائكة وبها باين البهائم . فاشرف الناس من كان حظه من هذه النفس أكثر وانصرافه اليها أتم وأوفر ومن غلبت عليه احدي النفسين الاخريين انحط عن مرتبة الانسانية بحسب غلبة تلك النفس عليه فانظر رحمك الله أين تضع نفسك وأين تحب أن تنزل من المنازل التي رتبها الله تعالى للموجودات فان هذا أمر موكول اليك ومردود الى اختيارك فان شئت فانزل

(١) الافن بالتحريك ضعف الرأى

فى منازل البهائم فانك تكون منهم وان شئت فانزل في منازل السباع وان شئت فانزل فى منازل الملائكة وكن منهم

(مطلب)

(بيان مافى القوى الثلاث من المقامات)

(وفى كل واحدة من هذه المراتب مقامات كثيرة) فان بعض البهائم أشرف من بعض وذلك لقبول التأديب لان الفرس انما شرف على الحمار لقبوله الادب وكذلك في البازى فضيلة على الغراب واذا تأملت الحيوان كله وجدت القابل للتأديب الذى هو أثر النطق أعنى النفس الناطقة أفضل من سائره وهو يتدرج فى ذلك الى أن يصيرالى الحيوان الذي هو في أفق الانسان أعني الذى هو أكمل البهائم وهو فى أخس مرتبة الانسانية وذلك أن اخس الناس هو من كان قليل العقل قريبا من البهيمة وهم القوم الذين فى اقاصى الارض المعمورة وسكان آخر ناحية الجنوب والشمال لاينفصلون عن القرود الا بشىء قليل من التميز وبذلك القدر يستحقون اسم الانسانية ثم يتميزون ويتزايدون فى هذا المعني حتى يبلغوا الى وسط الاقاليم ويعتدل فيهم المزاج القابل لصورة العقل فيصير فيهم

العاقل التام والمميز العالم ثم يتفاضلون في هذا المعنى أيضا الى ان يصيروا الى غاية مايمكن للانسان أن يبلغ اليه من قبول قوة العقل والنطق فيصير حينئذ في الافق الذى بين الانسان والملك ويصيرفيهم القابل للوحي والمطيق لحمل الحكمة فتفيض عليه قوة العقل ويسبح اليه نور الحق ولاحالة للانسان أعلى من هذه مادام انسانا * ثم ارجع القهقري الى النظرفي الرتبة الناقصة التي هي أدون مراتب الانسان فانك تجدالقوم الذين تضعف فيهم القوة الناطقة وهم القوم الذين ذكرنا انهم في أفق البهائم تقوى فيهم النفس البهيمية فيميلون الى شهواتها المأخوذة بالحواس كالمأكول والمشروب والملبوس وسائر النزوات الشبيهةبها وهؤلاء هم الذين تجذبهم الشهوات القوية بقوة نفوسهم البهيمية حتى يرتكبوهاولا يرتدعواعنها وبقدر مايكون فيهم من القوة العاقلة يستحيون منهاحتى يستتروا بالبيوت ويتواروا بالظلمات اذاهموا بلذةتخصهم وهذا الحياء منهم هو الدليل على قبحهافان الجميل بالاطلاق هو الذي يتظاهر به ويستحب اخراجه واذاعته وهذا القبح ليس بشيء أكثر من النقصانات

اللازمة للبشر وهى التي يشتاقون الى ازالتها وأخسها هوأنقصها وأنقصها أحوجها الى الستر والدفن ولوسألت القوم الذين يعظمون أمر اللذة ويجعلونها الخير المطلوب والغاية الانسانية لم تكتمون الوصول الى أعظم الخيرات عندكم وما بالكم تعدون موافقتها خيرا ثم تسترونها وترون سترها وكتمانها فضيلة ومروءة وانسانية والمجاهرة بها واظهارها بين أهل الفضل وفي مجامع الناس خساسة وقحة لظهر من انقطاعهم وتبلدهم في الجواب ماتعلم به سوء مذهبهم وخبث سيرتهم وأقلهم حظا من الانسانية اذارأى انسانا فاضلا احتشمه ووقره وأحب أن يكون مثله الا الشاذ منهم الذي يبلغ من خساسة الطبع ونزارة الانسانية ووقاحة الوجه الى أن يقيم على نصرة ماهو عليه من غير محبة لرتبة من هو أفضل منه

﴿ مطلب ﴾

(مايجب على العاقل معرفته ولزوم اقتصاره على ما به قوام حياته)

فاذاً يجب على العاقل أن يعرف ماابتلي به الانسان من هذه النقائص التي في جسمه وحاجاته الضرورية الى ازالتها وتكميلها فأما بالغذاء فالذي يحفظ به اعتدال مزاجه وقوام حياته فيذل

منه قدر الضرورة في كماله ولا يطلب اللذة لعينها بل قوام الحياة التي تتبعه اللذة فان تجاوز ذلك قليلا فبقدر ما يحفظ رتبته في مروءته ولا ينسب الى الدناءة والبخل بحسب حاله ومرتبته بين الناس * وأما باللباس فالذي يدفع به أذى الحر والبرد ويستر العورة فان تجاوز ذلك فبقدر مالا يستحقر ولا ينسب الى الشح على نفسه والى أن يسقط بين أقرانه وأهل طبقته * وأما بالجماع فالذي يحفظ نوعه وتبقي به صورته أعني طلب النسل فان تجاوز ذلك فبقدر مالا يخرج به عن السنة ولا يتعدى مايملكه الى مايملكه غيره * ثم يلتمس الفضيلة في نفسه العاقلة التي بها صار انسانا وينظر الى النقائص التي في هذه النفس خاصة فيروم تكميلها بطاقته وجهده فان هذه الخيرات هي التي لا تستر واذا وصل اليها لا يمنع عنها الحياء ولا تتوارى عنها بالحيطان والظلمات ويتظاهر بها أبدا بين الناس وفي المحافل وهي التي يكون بها بعض الناس أفضل من بعض وبعضهم أكثر انسانية من بعض ويغذو هذه النفس بغذائها الموافق لها المتمم لنقصانها كما يغذو تلك بأغذيتها الملائمة لها فان غذاء هذه هو العلم والزيادة في المعقولات والارتياض بالصدق في الآراء

وقبول الحق حيث كان ومع من كان والنفور من الكذب والباطل كيف كان ومن أين جاء فمن اتفق له في الصبا أن يربى على أدب الشريعة ويؤخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعودها ثم ينظر بعد ذلك في كتب الاخلاق حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن في نفسه بالبراهين ثم ينظر في الحساب والهندسة حتى يتعود صدق القول وصحة البرهان فلا يسكن الا اليها ثم يتدرج كما رسمناه في كتابنا الموسوم بترتيب السعادات ومنازل العلوم حتى يبلغ الى أقصى مرتبة الانسان فهو السعيد الكامل فليكثر حمد الله تعالى على الموهبة العظيمة والمنة الجسيمة ومن لم يتفق له ذلك في مبدإ نشوءه ثم ابتلى بأن يربيه والده على رواية الشعر الفاحش وقبول أكاذيبه واستحسان ما يوجد فيه من ذكر القبائح ونيل اللذات كما يوجد في شعر امرئ القيس والنابغة وأشباههما ثم صار بعد ذلك الى رؤساء يقربونه على روايتها وقول مثلها ويجزلون له العطية وامتحن بأقران يساعدونه على تناول اللذات الجسمانية ومال طبعه الى الاستكثار من المطاعم والملابس والمراكب والزينة وارتباط الخيل الفره والعبيد الروقة كما اتفق لي مثل ذلك في بعض

الاوقات ثم انهمك فيها واشتغل بها عن السعادة التي أهل لها فليعد جميع ذلك شقاء لا نعيما وخسرانا لا ربحا وليجتهد على التدريج الى فطام نفسه منها وما أصعب ذلك الا انه على كل حال خير من التمادي في الباطل وليعلم الناظر في هذا الكتاب اني خاصة تدرجت الى فطام نفسي بعد الكبر واستحكام العادة وجاهدتها جهادا عظيما ورضيت لك أيها الفاحص عن الفضائل والطالب الادب الحقيقي بما رضيت لنفسي بل تجاوزت لك في النصيحة الى أن أشرت عليك بما فاتني في ابتداء أمري لتدركه أنت ودللتك على طريق النجاة قبل أن تتيه في مفاوز الضلالة وقدمت لك السفينة قبل أن تغرق في بحر المهالك فالله الله في نفوسكم معاشر الاخوان والاولاد استسلموا للحق وتأدبوا بالادب الحقيقي لا المزور وخذوا الحكمة البالغة وانتهجوا الصراط المستقيم وتصوروا حالات أنفسكم وتذكروا قواها واعلموا أن أصح مثل ضرب لكم من نفوسكم الثلاث التي مر ذكرها في المقالة الاولى مثل ثلاثة حيوانات مختلفة جمعت في مكان واحد ملك وسبع وخنزير فايها اغلب بقوته قوة الباقيين كان الحكم له وليعلم من تصور هذا المثال أن النفس لما كانت

جوهرا غير جسم ولا شيء فيها من قوى الجسم واعراضه كما بينا ذلك في صدر هذا الكتاب كان اتحادها واتصالها بخلاف اتحاد الاجسام واتصال بعضها ببعض وذلك ان هذه الانفس الثلاث اذا اتصلت صارت شيئا واحدا ومع أنها تكون شيأ واحدا فهي باقية التغاير وباقية القوى تثور الواحدة بعد الواحدة حتى كانها لم تتصل بالاخرى ولم تتحد بها وتستجدى أيضا الواحدة للاخرى حتى كانها غير موجودة ولا قوة لها تنفرد بها وذلك أن اتحادها ليس بأن تتصل نهايتها ولا بأن تتلاقي سطوحها كما يكون ذلك في الاجسام بل تصير في بعض الاحوال شيأ واحدا وفي بعض الاحوال أشياء مختلفه بحسب ما تهيج قوة بعضها أو تسكن ولذلك قال قوم ان النفس واحدة ولها قوى كثيرة وقال آخرون بل هي واحدة بالذات كثيرة بالعرض وبالموضوع وهذا شيء يخرج الكلام فيه عن غرض الكتاب وسيمر بك في موضعه وليس يضرك في هذا الوقت أن تعتقد أي هذه الآراء شئت بعد أن تعلم ان بعض هذه كريمة أدبية بالطبع وبعضها مهينة عادمة للادب بالطبع وليس فيها استعداد لقبول الادب وبعضها عادمة الادب الا

أنها تقبل التأديب وتنقاد للتي هي أدبية أما الكريمة الادبية بالطبع فالنفس الناطقة وأما العادمة للادب وهي مع ذلك غير قابلة له فهي النفس البهيمية وأما التي عدمت الادب ولكنها تقبله وتنقاد له فهي النفس الغضبية وانما وهب الله تعالى لنا هذه النفس خاصة لنستعين بها على تقويم البهيمية التي لا تقبل الادب وقد شبه القدماء الانسان وحاله في هذه الانفس الثلاث بانسان راكب دابة قوية يقود كلبا أو فهدا للقنص فان كان الانسان من بينهم هو الذي يروض دابته وكلبه يصرفهما ويطيعانه في سيره وتصيده وسائر تصرفاته فلا شك في رغد العيش المشترك بين الثلاثة وحسن أحواله لان الانسان يكون مرفها في مطالبه يجري فرسه حيث يحب وكما يحب ويطلق كلبه أيضا كذلك فاذا نزل واستراح أراحهما معه وأحسن القيام عليهما في المطعم والمشرب وكفاية الاعداء وغير ذلك من مصالحهما واذا كانت البهيمة هي الغالبة سأت حال الثلاثة وكان الانسان مضعوفا عندهما فلم تطع فارسها وغلبت فان رأت عشبا من بعيد عدت نحوه وتعسفت في عدوها وعدلت عن الطريق النهج فتعترضها الاودية والوهاد والشوك والشجر

فتقحمتها وتورطت فيها ولحق فارسها مايلحق مثله في هـذه الاحوال فيصيبهم جميعا من أنواع المكاره والاشراف على الهلكة مالا خفاء فيه * وكذلك ان قوي الكلب لم يطع صاحبه فان رأي من بعيد صيدا أوما يظنه صيدا أخذ نحوه بجذب الفارس وفرسه ولحق الجميع من الضرر والضر أضعاف ماذكرناه وفي تصور هذا المثل الذي ضربه القدماء تنبيه على حال هذه النفوس ودلالة على ماوهبه الله عز وجل للانسان ومكنه منه وعرضه له وما يضيعه بعصيان خالقه تعالى فيه عند اهمال السياسة واتباعه أمر هاتين القوتين وتعبده لهما وهما اللتان ينبغي ان تتبعاه بتأمره عليهما فمن أسوأ حالا ممن أهمل سياسة الله عز وجل وضيع نعمته عليه وترك هذه القوي فيه هائجة مضطربة تتغالب وصار الرئيس منها مرؤوسا والمالك منها مستعبدا تتقلب معهما في المهالك حتى تتمزق ويتمزق معها هو أيضا نعوذ بالله من الانتكاس في الخلق الذي سببه طاعة الشيطان واتباع الابالسة فليست الاشارة بها الى غير هـذه القوي التي وصفناها ووصفنا أحوالها * نسأل الله عصمته ومعونته على تهذيب هذه النفوس حتي تنتهي فيها الى طاعة الله التي هي

نهاية مصالحنا وبها نجاتنا وخلاصنا الى الفوز الاكبر والنعيم السرمدي * وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه العاقلة وترك سلطان الشهوة يستولى عليها برجل معه ياقوتة حمراء شريفة لا قيمة لها من الذهب والفضة جلالة ونفاسة وكان بين يديه نار تضطرم فرماها في حباحبها حتى صارت كلسا لا منفعة فيها فخسرت نفس ضروب منافعها * فقد علمنا الآن أن النفس العاقلة اذا عرفت شرف نفسها وأحست بمرتبتها من الله عز وجل أحسنت خلافته فى ترتيب هذه القوى وسياستها ونهضت بالقوة التي أعطاها الله تعالى الى محلها من كرامة الله تعالى ومنزلتها من العلو والشرف ولم تخضع للسبعية ولا للبهيمية بل تقوّم النفس الغضبية التي سميناها سبعية وتقودها الى الادب بحملها على حسن طاعتها ثم تستنهضها فى أوقات هيجان هذه النفس البهيمية وحركتها الى الشهوات حتى يقمع بهذه سلطان تلك وتستخدمها فى تأديبها وتستعين بقوة هذه على تأبي تلك وذلك أن هذه النفس الغضبية قابلة للادب قوية على قمع الاخرى كما قلنا وتلك النفس البهيمية عادمة للادب غير قابلة له وأما النفس الناطقة أعنى العاقله فهى كما قال افلاطون بهذه

الالفاظ أما هذه فبمنزلة الذهب في اللين والانعطاف وأما تلك فيمنزلة الحديد في الصلابة والامتناع فان أنت آثرت الفعل الجميل في وقت وجاذبتك القوة الاخرى الى اللذة والى خلاف ما آثرت فاستعن بقوة الغضب التي تثير وتهيج بالانفة والحمية وافهر بها النفس البهيمية فان غلبتك مع ذلك ثم ندمت وأنفت فانت في طريق الصلاح فتمم عزيمتك واحذر ان تعاودك بالطمع فيك والغلبة لك فان لم تفعل ذلك ولم تمكن العقبي في الغلبة لك كنت كما قال الحكيم الاول اني أري أكثر الناس يدعون محبة الافعال الجميلة ثم لا يحتملون المؤنة فيها على علمهم بفضلها فيغلبهم الترفه ومحبة البطالة فلا يكون بينهم وبين من لا يحب الافعال الجميلة فرق اذا لم يحتملوا مؤنة الصبر ويصيروا الى تعلم تمام ما آثروه وعرفوا فضله واذكر مثل البئر التي تردي فيها الاعمى والبصير فيكونان في الهلكة سواء الا أن الاعمى أعذر ومن وصل من هذه الآداب الى مرتبة يعتد بها واكتسب بها الفضائل التي عددناها فقد وجب عليه تأديب غيره وافاضة ما أعطاه الله تعالى على أبناء جنسه

﴿ فصل في تأديب الاحداث والصبيان خاصة ﴾

(نقلت اكثره من كتاب بروسن)

قد قلنا فيما تقدم ان أول قوة تظهر في الانسان أول مايتكون هى القوة التى يشتاق بها الى الغذاء الذى هو سبب كونه حيا فيتحرك بالطبع الى اللبن ويلتمسه من الثدى الذى هو معدنه من غير تعليم ولا توقيف ويحدث له مع ذلك قوة على التماسه بالصوت الذي هو مادته ودليله الذى يدل به على اللذة والاذي ثم تتزايد فيه هذه القوة ويتشوق بها ابدا الى الازدياد والتصرف بها فى أنواع الشهوات ثم تحدث فيه قوة على التحرك نحوها بالآلات التى تخلق له ثم يحدث له التشوق الى الافعال التى تحصل له هذه ثم يحدث له من الحواس قوة على تخيل الامور ويرتسم فى قوته الخيالية مثالات فيتشوق اليها ثم تظهر فيه قوة الغضب التى يشتاق بها الى دفع مايؤذيه ومقاومة مايمنعه من منافعه فان اطاق بنفسه أن ينتقم من مؤذيانه انتقم منها والا التمس معونة غيره وانتصر بوالديه بالتصويت والبكاء ثم يحدث له الشوق الى تميز الافعال الانسانية خاصة أولا أولا حتى يصير الى كماله في هذا التميز فيسمي حينئذ عاقلا

وهـذه القوي كثيرة وبعضها ضروري في وجود الاخرى الى ان ينتهي الي الغاية الاخيرة وهي التي لا تراد لغاية أخري وهو الخير المطلق الذى يتشوقه الانسان من حيث هو انسان فاول مايحدث فيـه من هذه القوة الحياء وهو الخوف من ظهور شيء قبيح منه ولذلك قلنا ان أول ماينبغي أن يتفرس في الصبي ويستدل به على عقـله الحياء فانه يدل على انه قـد أحس بالقبيح ومع احساسه به هو يحذره ويتجنبه ويخاف ان يظهر منه أو فيه فاذا نظرت الى الصبي فوجدته مستحييا مطرقا بطرفه الى الارض غير وقاح الوجه ولا محدق اليك فهو أول دليل نجابته والشاهد لك على ان نفسه قد أحست بالجميل والقبيح وان حياءه هو انحصـار نفسه خوفا من قبيح يظهر منه وهذا ليس بشيء أكثر من ايثار الجميل والهرب من القبيح بالتمييز والعقل وهـذه النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية لايجب ان تهمل ولا تترك ومخالطة الاضـداد الذين يفسدون بالمقارنة والمداخلة وان كانت بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة فان نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة ولا لها رأى وعزيمة تميلها من شيء الي شيء فاذا

نقشت بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها

﴿ مطلب ﴾

(مايقوم به الاطفال)

فالاولى بمثل هذه النفس ان تنبه أبدا على حب الكرامة ولا سيما مايحصل له منها بالدين دون المال وبلزوم سننه ووظائفه ثم يمدح الاخيار عنده ويمدح هو في نفسه اذا ظهر شيء جميل منه ويخوف من المذمة على أدنى قبيح يظهر منه ويؤاخذ باشتهائه للمآكل والمشارب والملابس الفاخرة ويزين عنده خلف النفس والترفع عن الحرص في المآكل خاصة وفى اللذات عامة ويحبب اليه ايثار غيره على نفسه بالغذاء والاقتصار على الشيء المعتدل والاقتصاد فى التماسه ويعلم ان أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللاتي يتزين للرجال ثم العبيد والخول وان الاحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما اشبهه حتي اذا تربي على ذلك وسمعه من كل من يقرب منه وتكرر عليه ولم يترك ومخالطة من يسمع منه ضد ماذكرته لا سيما من اترابه ومن كان في مثل سنه ممن يعاشره ويلاعبه وذلك ان الصبي في ابتداء نشوءه يكون على الاكثر

قبيح الافعال اما كلها واما اكثرها فانه يكون كذوبا ويخبر ويحكي مالم يسمعه ولم يره ويكون حسودا سروقا نماما لجوجا ذافضول اضر شيء بنفسه وبكل أمر يلابسه ثم لايزال به التأديب والسنن والتجارب حتى يتنقل في أحوال بعدأحوال فلذلك ينبغي أن يؤاخذ مادام طفلا بما ذكرناه ونذكره ثم يطالب بحفظ محاسن الاخبار والاشعار التي تجري مجرى ماتعوده بالادب حتى يتأكد عنده بروايتها وحفظهاوالمذاكرة بها جميع ماقدمنا ذكره ويحذر النظر في الاشعار السخيفة وما فيها من ذكر العشق وأهله وما يوهمه أصحابها انه ضرب من الظرف ورقةالطبع فانهذاالباب مفسدة للاحداث جدا ثم يمدح بكل مايظهر منه من خلق جميل وفعل حسن ويكرم عليه فان خالف في بعض الاوقات ماذكرته فالاولى ان لايوبخ عليه ولا يكاشف بانه أقدم عليه بل يتغافل عنه تغافل من لايخطر بباله انه قد تجاسر على مثله ولا هم به لاسيما ان ستره الصبي واجتهد في أن يخفي مافعله عن الناس فان عاد فليوبخ عليه سرا وليعظم عنده ما أتاه ويحذر من معاودته فانك ان عودته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة وحرضته على

معاودة ما كان استقبحه وهان عليه سماع الملامة في ركوب قبائح اللذات التي تدعو اليها نفسه وهذه اللذات كثيرة جدا

(مطلب)

بيان مايبدأ به في تقويم النفس وهو أدب المطاعم

والذي ينبغي أن يبدأ به في تقويمها أدب المطاعم فيفهم أولا انها انما تراد للصحة لا للذة وان الاغذية كلها انما خلقت وأعدت لنا لتصح بها أبداننا وتصير مادة لحياتنا فهي تجري مجرى الادوية يداوى بها الجوع والالم الحادث منه فكما ان الدواء لا يرام للذة ولا يستكثر منه للشهوة فكذلك الاطعمة ماينبغي أن يتناول منها الا مايحفظ صحة البدن ويدفع ألم الجوع ويمنع من المرض فيحقر عنده قدر الطعام الذى يستعظمه أهل الشره ويقبح عنده صورة من شره اليه وينال منه فوق حاجة بدنه أو مالا يوافقه حتى يقتصر على لون واحد ولا يرغب في الالوان الكثيرة واذا جلس مع غيره لا يبادر الى الطعام ولا يديم النظر الى الوانه ولا يحدق اليه شديدا ويقتصر على مايليه ولا يسرع في الاكل ولا يوالي بين اللقم بسرعة ولا يعظم اللقمة ولا يبتلعها حتى يجيد مضغها ولا يلطخ يده ولا ثوبه ولا

يلحظ من يؤاكله ولا يتبع بنظره مواقع يده من الطعام ويعود أن يؤثر غيره بما يليه ان كان أفضل ماعنده ثم يضبط شهوته حتي يقتصر على أدنى الطعام وأدونه ويأكل الخبز القفار الذى لاأدم معه في بعض الاوقات وهذه الآداب وان كانت جميلة بالفقراء فهي بالاغنياء أفضل وأجمل وينبغى أن يستوفى غذائه بالعشى فان استوفاه بالنهار كسل واحتاج الى النوم وتبلد فهمه مع ذلك وان منع اللحم في أكثر أوقاته كان أنفع له وقعا في الحركة والتيقظ وقلة البلادة وبعثه على النشاط والخفة واما الحلواء والفاكهة فينبغي أن يمتنع منها ألبتة ان أمكن والا فليتناول أقل ما يمكن فانها تستحيل في بدنه فتكثر انحلاله وتعوده مع ذلك على الشره ومحبة الاستكثار من المآكل ويعود أن لايشرب فى خلال طعامه الماء فاما النبيذ وأصناف الاشربة المسكرة فاياه واياها فانها تضره في بدنه ونفسه وتحمل على سرعة الغضب والتهور والاقدام على القبائح والقحة وسائر الخلال المذمومة ولا ينبغى أن يحضر مجالس أهل الشرب الا أن يكون اهل المجلس أدباء فضلاء وأما غيرهم فلا لئلا يسمع الكلام القبيح والسخافات التي تجرى فيه وينبغى

أن لا يأكل حتى يفرغ من وظائف الادب التي يتعلمها ويتعب تعبا كافيا وينبغي أن يمنع من كل فعل يستره ويخفيه فانه ليس يخفى شيأ الا وهو يظن أو يعلم انه قبيح ويمنع من النوم الكثير فانه يقبحه ويغلظ ذهنه ويميت خاطره هذا بالليل فأما بالنهار فلا ينبغي أن يتعوده ألبتة ويمنع أيضا من الفراش الوطيء وجميع أنواع الترفه حتى يصلب بدنه ويتعود الخشونة ولا يتعود الخيش والاسراب [١] في الصيف ولا الاوبار والنيران في الشتاء للاسباب التي ذكرناها ويعود المشي والحركة والركوب والرياضة حتى لا يتعود أضدادها ويعود أن لا يكشف اطرافه ولا يسرع في المشي ولا يرخي يديه بل يضمهما الى صدره ولا يربي شعره ولا يزين بملابس النساء ولا يلبس خاتما الا وقت حاجته اليه ولا يفتخر على اقرانه بشيء مما يملكه والداه ولا بشيء من مآكله وملابسه وما يجري مجراه بل يتواضع لكل أحد ويكرم كل من عاشره ولا يتوصل بشرف ان كان له أو سلطان من

---

(١) الاسراب هكذا في النسخ ولعل مراده السرب محركا وهو الماء السائل ولم أعثر على جمعه أو السرق وهو شقق الحرير الابيض وكل مناسب لمن تأمل اه

اهله ان اتفق الى غضب من هو دونه اواستهداء من لا يمكنه
أن يرده عن هواه او تطاوله عليه كمن اتفق له أن كان خاله وزيرا
أو عمه سلطانا فتطرق به الى هضيمة اقرانه وثلم اخوانه
واستباحة أموال جيرانه ومعارفه وينبغي ان يعود ان لا يبصق
في مجالسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يضع
رجلا على رجل ولا يضرب تحت ذقنه بساعده ولا يعمد رأسه بيده
فان هذا دليل الكسل وانه قد بلغ به التقبيح الى ان لا يحمل رأسه
حتى يستعين بيده ويعود ان لا يكذب ولا يحلف ألبتة لا صادقا
ولا كاذبا فان هـذا قبيح بالرجال مع الحاجة اليه في بعض
الاوقات فأما الصبي فلا حاجة به الى اليمين ويعود ايضاً الصمت
وقلة الكلام وان لا يتكلم الا جوابا واذا حضر من هو اكبر
منه اشتغل بالاستماع منه والصمت له ويمنع من خبيث الكلام
وهجينه ومن السب واللعن ولغو الكلام ويعود حسن الكلام
وظريفه وجميل اللقاء وكريمه ولا يرخص له أن يستمع
لاضدادها من غيره ويعود خدمة نفسه ومعلمه وكل من كان
أكبر منه * وأحوج الصبيان الى هذا الادب أولاد الاغنياء
والمترفين وينبغي اذا ضربه المعلم أن لا يصرخ ولا يستشفع

بأحد فان هذا فعل المماليك ومن هو خوار ضعيف ولا يعير أحدا الا بالقبيح والسيء من الادب ويعود أن لا يوحش الصبيان بل يبرهم ويكافئهم على الجميل بأكثر منه لئلا يتعود الربح على الصبيان وعلى الصديق ويبغض اليه الفضة والذهب ويحذر منهما أكثر من تحذير السباع والحيات والعقارب والافاعي فان حب الفضة والذهب آفته أكثر من آفة السموم وينبغي أن يؤذن له في بعض الاوقات أن يلعب لعبا جميلا ليستريح اليه من تعب الادب ولا يكون في لعبه ألم ولا تعب شديد ويعود طاعة والديه ومعلميه ومؤدبيه وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم ويهابهم وهذه الآداب النافعة للصبيان وهي للكبار من الناس أيضا نافعة ولكنها للاحداث أنفع لانها تعودهم محبة الفضائل وينشؤن عليها فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ما ترسمه الحكمة وتحده الشريعة والسنة ويعتادون ضبط النفس عما تدعوهم اليه من اللذات القبيحة وتكفهم عن الانهماك في شيء منها والفكر الكثير فيها وتسوقهم الي مرتبة الفلسفة العالية وترقيهم الى معالي الامور التي وصفناها في أول الكتاب من التقرب الى الله

عزوجل ومجاورة الملائكة مع حسن الحال في الدنيا وطيب
العيش وجميل الاحدوثة وقلة الاعداء وكثرة المداح والراغبين
في مودته من الفضلاء خاصة فاذا تجاوز هذه الرتبة وبلغ أيامه
الى أن يفهم أغراض الناس وعواقب الامور فهم ان الغرض
الاخير من هـذه الاشياء التي يقصدها الناس ويحرصون
عليها من الثروة واقتناء الضياع والعبيد والخيل والفرش واشباه
ذلك انما هو ترفيه البدن وحفظ صحته وان يبقى على اعتداله
مدة ما وأن لا يقع في الامراض ولا تفجؤه المنية وأن يتهنأ
بنعمة الله عليه ويستعد لدار البقاء والحياة السرمدية وأن
اللذات كلها بالحقيقة هي خلاص من آلام وراحات من تعب
فاذا عرف ذلك وتحققه ثم تعوده بالسيرة الدائمة عود الرياضات
التي تحرك الحرارة الغريزية وتحفظ الصحة وتنفي الكسل
وتطرد البلادة وتبعث النشاط وتذكي النفس فمن كان ممولا
مترفا كانت هذه الاشياء التي رسمتها أصعب عليه لكثرة من
يحتف به ويغويه ولموافقة طبيعة الانسان في أول ما انشأ هذه
اللذات واجماع جمهور الناس على نيل ما أمكنهم منها وطلب
ما تعذر عليهم بغاية جهدهم وأما الفقراء فالامر عليهم أسهل

بل هم قريبون الى الفضائل قادرون عليها متمكنون من نيلها والاصابة منها وحال المتوسطين من الناس متوسطة بين هاتين الحالتين وقد كان ملوك الفرس الفضلاء لايربون اولادهم بين حشمهم وخواصهم خوفا عليهم من الاحوال التي ذكرناها ومن سماع ماحذرت منه وكانوا ينفذونهم مع ثقاتهم الى النواحي البعيدة منهم وكان يتولى تربيتهم أهل الجفاء وخشونة العيش ومن لايعرف التنعم ولا الترفه وأخبارهم فى ذلك مشهورة وكثير من رؤساء الديلم فى زماننا هذا ينقلون أولادهم عند ماينشؤن الى بلادهم ليتعودوا بها هذه الاخلاق ويبعدوا عن التفتح وعادات اهل البلدان الرديئة *

﴿ مطلب ﴾

(بيان من نشأ من الاطفال على خلاف الآداب والفضائل المتقدمة)

واذ قد عرفت هذه الطرق المحمودة فى تأديب الاحداث فقد أعرفت أضدادها أعني ان من نشأ على خلاف هذا المذهب والتأديب لم يرج فلاحه ولاينبغى ان يشتغل بصلاحه وتقويمه فانه قد صار بمنزلة الخنزير الوحشى الذى لايطمع في رياضته فان نفسه العاقلة تصير خادمة لنفسه البهيمية ولنفسه الغضبية

فهى منهمكة في مطالبها من النزوات وكما انه لاسبيل الى رياضة سباع البهائم الوحشية التى لاتقبل التأديب كذلك لاسبيل الى رياضة من نشأ على هذه الطريقة واعتادها وأمعن قليلا فى السن اللهم الا ان يكون فى جميع أحواله عالما بقبح سيرته ذاما لها عائبا على نفسه عازما على الاقلاع والانابة فان مثل هذا الانسان من يرجى له النزوع عن اخلاقه بالتدريج والرجوع الى الطريقة المثلى بالتوبة وبمصاحبة الاخيار وأهل الحكمة وبالاكباب على التفلسف * واذ قد ذكرنا الخلق المحمود وماينبغي ان يؤخذ به الاحداث والصبيان فنحن واصفون جميع القوى التي تحدث للحيوان اولا اولا الى ان ينتهى الى اقصى الكمال في الانسانية فانك شديد الحاجة الى معرفة ذلك لتبتدئ على الترتيب الطبيعى في تقويم واحد واحد منها فنقول

﴿ مطلب ﴾

(بيان تفاضل الاجسام الطبيعية بقبول الآثار الشريفة)

إن الاجسام الطبيعية كلها تشترك فى الحد الذي يعمها ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة والصور التي تحدث فيها فان

الجماد منها اذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها افضل من الطينة الاولى التي لاتقبل تلك الصورة فاذا بلغ الى ان يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة افضل من الجماد وتلك الزيادة هي الاغتذاء والنمو والامتداد في الاقطار واجتذاب مايوافقه من الارض والماء وترك مالايوافقه ونفض الفضول التى تتولد فيه من غذائه عن جسمه بالصموغ وهذه هي الاشياء التي ينفصل بها النبات من الجماد وهى حال زائدة على الجسمية التى حددناها وكانت حاصلة فى الجماد

﴿ مطلب ﴾

(بيان ما يشرف به النبات على الجماد)

وهذه الحالة الزائدة في النبات التى شرف بها على الجماد تتفاضل وذلك أن بعضه يفارق الجماد مفارقة يسيرة كالمرجان واشباهه ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شيء بعد شي فبعضه ينبت من غير زرع ولا بذر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبزر ويكفيه في حدوثه امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس فالذلك هو فى أفق الجمادات وقريب الحال منها ثم تزداد هذه الفضيلة في النبات فيفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب

حتي تظهر فيه قوة الاثمار وحفظ النوع بالبزر الذي يخلف به مثله فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ماقبله ثم تقوي هذه الفضيلة فيه حتى يصير فضل الثالث على الثانى كفضل الثانى على الاول ولا يزال يشرف ويفضل بعضه على بعض حتي يبلغ الى افقه ويصير فى افق الحيوان وهى كرام الشجر كالزيتون والرمان والكرم واصناف الفواكه الا انها بعد مختلطة القوى أعني ان قوى ذكورها واناثها غير متميزة فهي تحمل وتلد المثل ولم تبلغ غاية افقها الذى يتصل بافق الحيوان ثم تزداد وتمعن فى هذا الافق الى ان تصير في افق الحيوان فلا تحتمل زيادة وذلك انها ان قبلت زيادة يسيرة صارت حيوانا وخرجت عن افق النبات فحينئذ تتميز قواها ويحصل فيها ذكورة وانوثة وتقبل من فضائل الحيوان امورا تتميز بها عن سائر النبات والشجر كالنخل الذى طالع افق الحيوان بالخواص العشر المذكورة فى مواضعها ولم يبق بينه وبين الحيوان الا مرتبة واحدة وهى الانقلاع من الارض والسعى الى الغذاء وقد روى في الخبر ماهو كالاشارة اوكالرمز الى هذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه وسلم اكرموا عماتكم

النخل فانها خلقت من بقية طين آدم فاذا تحرك النبات واقتلع من افقه وسعى الى غذائه ولم يتقيد فى موضعه الى ان يصير اليه غذاؤه وكونت له آلات اخر يتناول بها حاجاته التي تكمله فقد صار حيوانا

﴿ مطلب ﴾

(بيان ما يتزايد في الحيوان من القوى بالتدريج)

وهـذه الآلات تتزايد فى الحيوان من اول افقه وتتفاضل فيه فيشرف فيه بعضها على بعض كما كان ذلك في النبات فلا يزال يقبل فضيلة بعد فضيلة حتى تظهر فيه قوة الشعور باللذة والاذى فيلتذ بوصوله الى منافعه ويتألم بوصول مضاره اليه ثم يقبل الهام الله عز وجل اياه فيهتدى الى مصالحه فيطلبها والى اضداده فيهرب منها وما كان من الحيوان في اول افق النبات فانه لا يتزاوج ولا يخلف المثل بل يتولد كالديدان والذباب واصناف الحشرات الخسيسة ثم يتزايد فيه قبول الفضيلة كما كان في النبات سواء ثم تحدث فيه قوة الغضب التي ينهض بها الى دفع مايؤذيه فيعطى من السلاح بحسب قوته وما يطيق استعماله فان كانت قوته الغضبية شديدة كان

سلاحه تاما قويا وان كانت ناقصة كان ناقصا وان كانت
ضعيفة جدا لم يعط سلاح ألبتة بل اعطي آلة الهرب كشدة
العدو والقدرة على الحيل التي تنجيه من مخاوفه وانت ترى
ذلك عيانا من الحيوان الذي اعطى القرون التي تجرى له مجرى
الرماح والذى اعطي الانياب والمخالب التي تجرى له مجرى
السكاكين والخناجر والذى اعطي آلة الرمى التي تجرى له
مجرى النبل والنشاب والذى اعطى الحوافر التي تجرى له مجرى
الدبوس والطبرزين فاما من لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله
ولقلة شجاعته ونقصان قوته الغضبية ولانه لو اعطيه لصاركلا
عليه فقد اعطي آلة الهرب والحيل بجودة العدو والخفة والختل
والمراوغة كالارانب واشباهها واذا تصفحت احوال الموجودات
من السباع والوحش والطير رأيت هذه الحكمة مستمرة فيها
فتبارك الله أحسن الخالقين * فاما الانسان فقد عوض من
هذه الآلات كلها بان هدى الى استعمالها كلها وسخرت
هذه كلها له وسنتكلم على ذلك في موضعه فاما اسباب هذه
الاشياء كلها والشكوك التي تعترض فى قصد بعضها بعضا
بالتلف والانواع من الاذى فليس يليق بهذا الموضع وسأذكرها

ان اخر الله في الاجل عند بلوغنا الى الموضع الخاص بها *

(مطلب)

(بيان مراتب الحيوان)

ونعود الى ذكر مراتب الحيوان فنقول انما اهتدى منها الى الازدواج وطلب النسل وحفظ الولد وتربيته والاشفاق عليه بالسكن والعش والالباس كما نشاهد فيما يلد ويبيض وتغذيته اما باللبن واما بنقل الغذاء اليه فانه افضل مما لا يهتدى الى شيء منها ثم لا تزال هذه الاحوال تتزايد فى الحيوان حتي يقرب من أفق الانسان فحينئذ يقبل التأديب ويصير بقبوله للادب ذا فضيلة يتميز بها عن سائر الحيوانات ثم تتزايد هذه الفضيلة فى الحيوانات حتى يشرف بها ضروب الشرف كالفرس والبازى المعلم ثم يصير من هذه المرتبة الى مرتبة الحيوان الذى يحاكي الانسان من تلقاء نفسه ويتشبه به من غير تعليم كالقردة وما أشبهها ويبلغ من ذكائها أن تكتفي في التأدب بأن تري الانسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الانسان الى تعب بها ورياضة لها وهذه غاية أفق الحيوان التى ان تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن أفقه وصار في أفق الانسان الذي

يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التي يستعملها والصور التي تلائمها فاذا بلغ هذه الرتبة تحرك الي المعارف واشتاق الى العلوم وحدثت له قوى وملكات ومواهب من الله عز وجل يقتدر بها على الترقي والامعان في هذه الرتبة كما كان ذلك في المراتب الأخر التي ذكرناها

﴿ مطلب ﴾

(بيان أول مراتب الافق الانساني)

وأول هذه المراتب من الافق الانساني المتصل بآخر ذلك الافق الحيواني مراتب الناس الذين يسكنون في أقاصي المعمورة من الشمال والجنوب كأواخر الترك من بلاد ياجوج وماجوج وأواخر الزنج واشباههم من الامم التي لا تميز عن القرود الا بمرتبة يسيرة ثم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم الى أن يصيروا الى وسط الاقاليم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل والى هذا الموضع ينتهي فعل الطبيعة التي وكلها الله عز وجل بالمحسوسات ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالارادة والسعي والاجتهاد الذي ذكرناه فيما تقدم حتى يصل الى آخر أفقه فاذا صار الى آخر

أفقه اتصل بأول أفق الملائكة وهذا أعلى مرتبة الانسان وعندها تتأحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها وهو الذي يسمى دائرة الوجود لان الدائرة هى التى قيل في حدها انها خط واحد يبتدىء بالحركة من نقطة وينتهى اليها بعينها ودائرة الوجود هى المتأحدة التى جعلت الكثرة وحدة وهى التى تدل دلالة صادقة برهانية على وحدانية موجدها وحكمته وقدرته وجوده تبارك اسمه وتعالى جده وتقدس ذكره ولولا أن شرح هذا الموضع لايليق بصناعة تهذيب الاخلاق لشرحته وأنت تقف عليه ان بلغت هذه الرتبة بمشيئة الله واذا تصورت قدرما أومأنا اليه وفهمته اطلعت على الحالة التى خلقت لها وندبت اليها وعرفت الافق الذي يتصل بافقك وتنقلك فى مرتبة بعد مرتبة وركوبك طبقا عن طبق وحدث لك الايمان الصحيح وشهدت ماغاب عن غيرك من الدهماء وبلغت ان تندرج الى العلوم الشريفة المكنونة التى مبدؤها تعلم المنطق فانه الآلة فى تقويم الفهم والعقل الغريزى ثم الوصول به الى معرفه الخلائق وطباعها ثم التعلق بها والتوسع فيها والتوصل منها الى العلوم الالهية وحينئذ تستعد لقبول مواهب الله عز

وجل وعطاياه فيأتيك الفيض الالهي فتبكن عن قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية وتلحظ المرتبة التي ترقيت فيها أولا أولا من مراتب الموجودات وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة الى ماقبلها في وجودها وعلمت أن الانسان لا يتم له كماله الا بعد أن يحصل له ماقبله وانه اذا صار انسانا كاملا وبلغ غاية أفقه أشرق نور الافق الاعلى عليه وصار إما حكيما تاما تأتيه الالهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكمية والتأييدات العلوية في التصورات العقلية وإما نبيا مؤيدا يأتيه الوحي على ضروب المنازل التي تكون له عند الله تعالى ذكره فيكون حينئذ واسطة بين الملأ الاعلى والملأ الاسفل وذلك بتصوره حال الموجودات كلها والحال التي ينتقل اليها من حال الانسية ومطالعة الآفاق التي ذكرناها وحينئذ يفهم عن الله عزوجل قوله (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) وتصور معنى قوله صلى الله عليه وسلم هناك «مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» واذا بلغ بنا الكلام الى ذكر هذه المنزلة العالية الشريفه التي أهل الانسان لها ونسقنا أحواله التي يترقى فيها وانه يكون أولا بالشوق الى المعارف والعلوم

فينبغي أن نزيد في بيانه وشرحه فنقول

﴿ مطلب ﴾

(زيادة بيان للمنزلة العالية التي أهل الانسان للترقى اليها
وما يعرض له في زيارة الاثناء)

ان هذا الشوق ربما ساق الانسان على منهج قويم وقصد صحيح حتى ينتهي الى غاية كماله وهي سعادته التامة وقل مايتفق ذلك وربما أعوج به عن السمت والسنن وذلك لاسباب كثيرة يطول ذكرها ولا حاجة بك الى علمها الآن وأنت في تهذيب خلقك فكما أن الطبيعة المدبرة للاجسام ربما شوقت الى ماليس بتمام للجسم الطبيعي لعلل تحدث به وآفات تطرأ عليه بمنزلة من يشتاق الى أكل الطين وماجرى مجراه مما لا يكمل طبيعة الجسد بل يهدمه ويفسده كذلك أيضا النفس الناطقة ربما اشتاقت الى النظر والتمييز الذي لا يكملها ولا يشوقها نحو سعادتها بل يحركها الى الاشياء التي تعوقها وتقصر بها عن كمالها فحينئذ يحتاج الى علاج نفساني روحاني كما احتاج في الحالة الاولى الى طب طبيعي جسماني ولذلك تكثر حاجات الناس الى المقومين والمنفعين والى المؤدبين والمسددين من وجود تلك الطبائع

الفائقة التي تنساق بذاتها من غير توفق الى السعادة عسرة الوجود لا توجد الا في الازمنة الطوال والمدد البعيدة (وهذا) الادب الحق الذي يؤدينا الى غايتنا يجب أن تلحظ فيه المبدأ الذي يجري مجرى الغاية حتى اذا لحظت الغاية تدرج منها الى الامور الطبيعية على طريق التحليل ثم يبتدئ من أسفل على طريق التركيب فيسلك فيها الى أن ينتهي الى الغاية التي لحظت أولا وهذا المعنى هو الذي احوجنا في مبدأ هذا الكتاب وفي فصول أخر منه أن نذكر أشياء عالية لا تليق بهذه الصناعة ليتشوق اليها من يستحقها وليس يمكن الانسان ان يشتاق الى مالا يعرفه ألبتة فاذا لحظها من فيه قبول لها وعناية بها عرفها بعض المعرفة فتشوقها وسعى نحوها واحتمل التعب والنصب فيها وينبغي أن يعلم ان كل انسان معد نحو فضيلة ما فهو اليها أقرب وبالوصول اليها أحرى ولذلك ماتصير سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر الا من اتفق له نفس صافية وطبيعة فائقة فينتهي الى غايات الامور والى غاية غاياتها أعني السعادة القصوى التي لا سعادة بعدها ولاجل ذلك يجب على مدبر المدن أن يسوق كل انسان نحو سعادته التي تخصه

ثم يقسم عنايته بالناس ونظره لهم بقسمين أحدهما فى تسديد الناس وتقويمهم بالعلوم الفكرية والآخر في تسديدهم نحو الصناعات والاعمال الحسية واذا سددهم نحو السعادة الفكرية بدأ بهم من الغاية الاخيرة على طريق التحليل ووقف بهم عند القوى التي ذكرناها واذا سددهم نحو السعادة العملية بدأ بهم من عند هذه القوى وانتهي بهم الى تلك الغايات ولما كان غرضنا في هذا الكتاب السعادة الخلقية وان تصدر عنا الافعال كلها جميلة كما رسمنا فى صدر الكتاب وعملناه لمحبي الفلسفة خاصة لا للعوام وكان النظر يتقدم العمل وجب أن نذكر الخير المطلق والسعادة الانسانية لتلحظ الغاية الاخيرة ثم تطلب بالافعال الارادية التي ذكرنا جملها فى المقالة الاولى وارسطوطاليس انما بدأ كتابه بهذا الموضع وافتتحه بذكر الخير المطلق ليعرف ويتشوق ونحن نذكر ماقاله ونتبعه بما اخذناه أيضا عنه في مواضع أخر ليجتمع مافرقه ونضيف الى ذلك ما اخذناه عن مفسري كتبه والمتقبلين لحكمته نحو استطاعتنا والله الموفق المؤيد فان الخير بيده وهو حسبنا ونعم الوكيل

﴿ المقالة الثالثة ﴾

نبدأ بعونة الله تعالى فى هذه المقالة بذكر الفرق بين الخير والسعادة بعد ان نذكر الفاظ ارسطاليس اقتداء به وتوفية لحقه فنقول ان الخير على ماحده واستحسنه من آراء المتقدمين هو المقصود من الكل وهى الغاية الاخيرة وقد يسمي الشيء النافع في هذه الغاية خيرا فاماالسعادة فهى الخير بالاضافة الى صاحبها وهى كمال له فالسعادة اذاً خيرٌ ما وقد تكون سعادة الانسان غير سعادةالفرس وسعادة كل شيء فى تمامه وكماله الذى يخصه فاماالخير الذي يقصده الكل بالشوق فهو طبيعة تقصدولها ذات وهو الخير العام للناس من حيث هم ناس فهم باجمعهم مشتركون فيهافاما السعادة فهى خيرٌ ما لواحد واحد من الناس فهى اذاً بالاضافة ليس لها ذات معينة وهى تختلف بالاضافة الى قاصديها فلذلك يكون الخير المطلق غير مختلف فيه وقد يظن بالسعادة انها تكون لغير الناطقين فان كان ذلك فانما هى استعدادات فيها لقبول تماماتها وكمالاتها من غير قصد ولا روية ولاارادة وتلك الاستعدادات هي الشوق أو مايجرى مجرى الشوق من الناطقين بالارادة فاما ماينتأتى للحيوانات في مآ كلها ومشاربها

وواخاتها فينبغي ان يسمى بختا او اتفاقا ولا يؤهل لاسم السعادة كما يسمى في الانسان أيضا وانما استحسن الحد الذي ذكرنا للخير المطلق لان العقل لا يطلق السعي والحركة لا الى نهاية وهذا اول في العقل ومثال ذلك ان الصناعات والهمم والتدابير الاختيارية كلها يقصد بها خير ما وما لم يقصد به خير ما فهو عبث والعقل يحظره ويمنع منه وبالواجب صار الخير المطلق هو المقصود اليه من كل الناس ولكن بقي ان يعلم ما هو وما الغاية الاخيرة منه التي هي غاية الخيرات التي ترتقي الخيرات كلها اليها حتي نجعله غرضنا ونتوجه اليه ولا نلتفت الى غيره ولا تنتشر افكارنا في الخيرات الكثيرة التي تؤدي اليه إما تأدية بعيدة واما تأدية قريبة ولا نغلط ايضا فيما ليس بخير فنظنه خيرا ثم تفنى اعمارنا في طلبه والتعب به وكلا سنبين بمشيئة الله وعونه

﴿ مطلب ﴾

﴿ اقسام الخير ﴾

الخير على ماقسمه أرسطوطاليس وحكاه عنه فرفوريوس وغيره هكذا قال الخيرات منها ما هي شريفة ومنها ما هي ممدوحة

ومنها ما هى بالقوة كذلك وما هي نافعة فيها * فالشريفة منها هى التي شرفها من ذاتها وتجعل من اقتناها شريفا وهى الحكمة والعقل * والممدوحة منها مثل الفضائل والافعال الجميلة الارادية * والتى هى بالقوة مثل التهيؤ والاستعداد لنيل الاشياء التى تقدمت * والنافعة هي جميع الاشياء التى تطلب لا لذاتها بل ليتوصل بها الى الخيرات (وعلى جهة أخرى) الخيرات منها ما هى غايات ومنها ما ليست بغايات والغايات منها ما هى تامة ومنها ما هى غير تامة فالتى هي تامة كالسعادة وذلك انا اذا وصلنا اليها لم نحتج ان نستزيد اليها شيأ آخر والتى هى غير تامة فكالصحة واليسار من قبل انا اذا وصلنا اليها احتجنا ان نستزيد فنقتنى اشياء اخر واما التى ليست بغاية ألبتة فكالعلاج والتعلم والرياضة (وعلى جهة أخرى) الخيرات منها ما هو مؤثر لاجل ذاته ومنها ما هو مؤثر لاجل غيره ومنها ما هو مؤثر للامرين جميعا ومنها ماهو خارج عنهما (وعلى جهة أخرى) الخيرات منها ما هو خير على الاطلاق ومنها ما هو خير عند الضرورة والاتفاقات التي تتفق لبعض الناس وفي وقت دون وقت وأيضا منها ما هو خير لجميع الناس ومن جميع الوجوه

وفي جميع الاوقات ومنها ماليس بخير لجميع الناس ولا من جميع الوجوه (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هو في الجوهر ومنها ما هو في الكمية ومنها ما هو في الكيفية وفي سائر المقولات فمنها كالقوي والملكات ومنها كالاحوال ومنها كالافعال ومنها كالغايات ومنها كالمواد ومنها كالآلات *

﴿ مطلب ﴾

(بيان ان الخيرات في سائر المقولات)

ووجود الخيرات في المقولات كلها يكون على هذا المثال أما في الجوهر أعني ما ليس بعرض فالله تبارك وتعالى هو الخير الاول فان جميع الاشياء تتحرك نحوه بالشوق اليه ولان مآل الخيرات الالهية من البقاء والسرمدية والتمام منه وأما في الكمية فالعدد المعتدل والمقدار المعتدل واما في الكيفية فكاللذات واما في الاضافة فكالصدقات والرياسات واما في الاين والمتي فكالمكان المعتدل والزمان الانيق البهج واما في الوضع فكالقعود والاضطجاع والاتكاء الموافق وأما في الملك فكالاموال والمنافع واما في الانفعال فكالسماع الطيب وسائر المحسوسات المؤثرة واما في الفعل فمثل نفاذ الامر

وزواج الفعل (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها معقولات ومنها محسوسات (واما السعادة) فقد قلنا انها خير ما وهي تمام الخيرات وغاياتها والتمام هو الذى اذا بلغنا اليه لم نحتج معه الى شيء آخر فلذلك نقول ان السعادة هى أفضل الخيرات ولكنا نحتاج في هذا التمام الذىهو الغاية القصوى الى سعادات أخر وهى التى فى البدن والتى خارج البدن (وارسطوطاليس) يقول انه يعسر على الانسان أن يفعل الافعال الشريفة بلا مادة مثل اتساع اليد وكثرة الاصدقاء وجودة البخت قال ولهذا مااحتاجت الحكمة الى صناعة الملك فى اظهار شرفها قال ولهذا قلنا ان كان شيء عطية من الله تعالى وموهبة للناس فهو السعادة لانها عطيةمنه عز اسمه وموهبة فى أشرف منازل الخيرات وفى أعلى مراتبها وهى خاصة بالانسان التام ولذلك لا يشاركه فيها من ليس بتام كالصبيان ومن تجري مجراهم

﴿ مطلب ﴾

(بيان أقسام السعادة على مذهب أرسطوطاليس)

(وأما أقسام) السعادة على مذهب هذا الحكيم فهى خمسة

أقسام (أحدها) في صحة البدن ولطف الحواس ويكون ذلك من اعتدال المزاج أعني أن يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس (والثاني) في الثروة والاعوان وأشباههما حتى يتسع لان يضع المال في موضعه ويعمل به سائر الخيرات ويواسي منه أهل الخيرات خاصة والمستحقين عامة ويعمل به كل مايزيد في فضائله ويستحق الثناء والمدح عليه (والثالث) أن تحسن أحدوثته في الناس وينشر ذكره بين أهل الفضل فيكون ممدوحا بينهم يكثرون الثناء عليه لما يتصرف فيه من الاحسان والمعروف (والرابع) أن يكون منجحاً في الامور وذلك اذا استتم كل ماروى فيه وعزم عليه حتى يصير الى مايأمله منه (والخامس) أن يكون جيد الرأي صحيح الفكر سليم الاعتقادات في دينه وغير دينه بريئاً من الخطاء والزلل جيد المشورة في الآراء فمن اجتمعت له هذه الاقسام كلها فهو السعيد الكامل على مذهب هذا الرجل الفاضل ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك

﴿ مطلب ﴾

(بيان السعادة علي رأي بقراط وفيثاغورس وافلاطون واشباههم)

(وأما الحكماء) قبل هذا الرجل مثل فيثاغورس وبقراط وأفلاطون واشباههم فانهم أجمعوا على أن الفضائل والسعادة كلها في النفس وحدها ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلها في قوى النفس التي ذكرناها في أول الكتاب (وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة) وأجمعوا على أن هذه الفضائل هي كافية في السعادة ولا يحتاج معها الى غيرها من فضائل البدن ولا ماهو خارج البدن فان الانسان اذا حصل تلك الفضائل لم يضره في سعادته أن يكون سقيما ناقص الاعضاء مبتلى بجميع أمراض البدن اللهم الا ان يلحق النفس منها مضرة في خاص أفعالها مثل فساد العقل ورداءة الذهن وما اشبهما وأما الفقر والخمول وسقوط الحال وسائر الاشياء الخارجة عنها فليست عندهم قادحة في السعادة ألبتة * وأما الرواقيون وجماعة من الطبيعيين فانهم جعلوا البدن جزأ من الانسان ولم يجعلوه آلة كما شرحناه فيما تقدم فلذلك اضطروا الى أن يجعلوا السعادة التي في النفس غير كاملة اذا لم يقترن بها سعادة البدن وما هو خارج البدن أيضا أعني الاشياء التي تكون بالبخت والجد *

{ مطلب }

(بيان السعادة على رأى المحققين من الفلاسفة)

والمحققون من الفلاسفة يحقرون أمر البخت وكل مايكون به
ومعه ولا يؤهلون تلك الاشياء لاسم السعادة لان السعادة شئ
ثابت غير زائل ولا متغير وهى أشرف الامور وأكرمها وأرفعها فلا
يجعلون لاحسن الاشياء وهو الذي يتغير ولا يثبت ولا يتحصل
بروية ولا فكر ولا يتأتى بعقل وفضيلة فيها نصيبا ولهذا النظر
اختلف القدماء فى السعادة العظمى فظن قوم أنها لا تحصل
للانسان الا بعد مفارقة البدن والطبيعيات كلها وهؤلاء هم القوم
الذين حكينا عنهم أن السعادة العظمى هى في النفس وحدها
وسموا الانسان ذلك الجوهر وحده دون البدن ولذلك حكموا
أنها مادامت في البدن ومتصلة بالطبيعة وكدرها ونجاسات البدن
وضروراته وحاجات الانسان به وافتقاراته الى الاشياء الكثيرة
فليست سعيدة على الاطلاق وأيضا لما رأوها لا تكمل
لوجود الاشياء العقلية لانها لا تستتر عنها بظلمة الهيولى أعني
قصورها ونقصانها ظنوا انها اذا فارقت هذه الكدورة
فارقت الجهالات وصفت وخلصت وقبلت الاضاءة والنور

الالهي أعني العقل التام ويجب على رأى هؤلاء ان الانسان لا يسعد السعادة التامة الا فى الآخرة بعد موته * وأما الفرقة الاخرى فانها قالت انه من القبيح الشنيع أن يظن أن الانسان ما دام حيا يعمل الاعمال الصالحة ويعتقد الآراء الصحيحة ويسعي في تحصيل الفضائل كلها أو لا ثم لابناء جنسه ثانيا ويخاف رب العزة تقدس ذكره فى خلقه بهذه الافعال المرضية فهو شقي ناقص حتى اذا مات وعدم هذه الاشياء صار سعيدا تام السعادة وأرسطوطاليس يتحقق بهذا الرأى وذلك انه تكلم في السعادة الانسانية والانسان هو المركب عنده من بدن ونفس ولذلك حد الانسان بالناطق المايت وبالناطق الماشي برجلين وما اشبه ذلك وهذه الفرقة وهى التى رئيسها ارسطوطاليس رأت ان السعادة الانسانية تحصل للانسان فى الدنيا اذا سعى لها وتعب بها حتى يصير الى اقصاها ولما رأي الحكيم ذلك وان الناس مختلفون فى هذه السعادة الانسانية وانها قد اشكلت عليهم اشكالا شديدا احتاج ان يتعب فى الابانة عنها واطالة الكلام فيها وذلك ان الفقير يري ان السعادة العظمى في الثروة واليسار والمريض

يرى انها في الصحة والسلامة والذليل يري انها في الجاه والسلطان والخليع يري انها في التمكن من الشهوات كلها على اختلافها والعاشق يري انها في الظفر بالمعشوق والفاضل يري انها في افاضة المعروف على المستحقين والفيلسوف يرى ان هذه كلها اذا كانت مرتبة بحسب تقسيط العدل أعني عند الحاجة وفى الوقت الذى يجب وكما يجب وعند من يجب فهي سعادات كلها وما كان منها يراد لشيء آخر فذلك الشيء احق باسم السعادة * ولما كان كل واحدة من هاتين الفرقتين نظرت نظراً ما وجب ان نقول فى ذلك ما نراه صوابا وجامعا للرأيين فنقول * ان الانسان ذو فضيلة روحانية يناسب بها الارواح الطيبة التي تسمى ملائكة وذو فضيلة جسمانية يناسب بها الانعام لانه مركب منهما فهو بالخير الجسمانى الذى يناسب به الانعام مقيم فى هذا العالم السفلى مدة قصيرة ليعمره وينظمه ويرتبه حتى اذا ظفر بهذه المرتبة على الكمال انتقل الى العالم العلوى واقام فيه دائما سرمدا في صحبة الملائكة والارواح الطيبة وينبغي ان يفهم من قولنا العالم السفلى والعالم العلوي ما ذكرناه فيما تقدم فانا قد قلنا هناك انا لسنا نعنى بالعلوي

المكان الاعلى في الحس ولا بالعالم السفلى المكان الاسفل في الحس بل كل محسوس فهو اسفل وان كان محسوسا في المكان الاعلى وكل معقول فهو اعلى وان كان معقولا في المكان الاسفل وينبغى ان يعلم انه ليس يحتاج فى صحة الارواح الطيبة المستغنية عن الابدان الى شيء من السعادات البدنية التي ذكرناها سوى سعادة النفس فقط اعنى المعقولات (١) الابدية التي هي الحكمة فقط فاذا مادام الانسان انسانا فليس تتم له السعادة الا بتحصيل الحالين جميعا وليس يحصلان على التمام الا بالاشياء النافعة فى الوصول الى الحكمة الابدية فالسعيد اذاً من الناس يكون في احدى مرتبتين اما في مرتبة الاشياء الجسمانية متعلقا باحوالها السفلى سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور الشريفة باحثا عنها مشتاقا اليها متحركا نحوها مغتبطا بها * وإما ان يكون فى رتبة الاشياء الروحانية متعلقا باحوالها العليا سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور البدنية معتبرا بها ناظرا فى علامات القدرة الالهية ودلائل الحكمة البالغة مقتديا بها ناظما لها مفيضا للخيرات عليها سابقا لها

(١) نسخة لمعقولات الحقيقية التي بالحقيقة هى الحكمة اه

نحو الافضل فالافضل بحسب قبولها وعلى نحو استطاعتها وأى امرىء لم يحصل فى احدى هاتين المنزلتين فهو في رتبة الانعام بل هو اضل وانما صار أضل لان تلك غير معرضة لهذه الخيرات ولا أعطيت استطاعة تتحرك بها نحو هذه المراتب العالية وانما تتحرك بقواها نحو كمالاتها الخاصة بها والانسان معرض لها مندوب اليها مزاح العلة فيها وهو مع ذلك غير محصل لها ولا ساع نحوها وهو مع ذلك مؤثر لضدها يستعمل قواه الشريفة فى الامور الدنيئة وتلك محصلة لكمالاتها التى تخصها فاذاً الانعام اذا منعت الخيرات الانسية حرمت جوار الارواح الطيبة ودخول الجنة التى وعد المتقون فهى معذورة والانسان غير معذور مثل الاول مثل الاعمى اذا جار عن الطريق فتردي في بئر فهو مرحوم غير ملوم ومثل الثانى مثل بصير يجور على بصير حتى يتردى فى البئر فهو ممقوت ملوم * واذ قد تبين أن السعيد لا محالة في احدى المرتبتين اللتين ذكرناهما فقد تبين أيضا أن احدهما ناقص مقصر عن الآخر وان الانقص منهما ليس يخلو ولا يتعري من الآلام والحسرات لاجل خدائع الطبيعة والزخارف الحسية التى تعترضه فيما يلابسه

وتعوقه عما يلاحظه وتمنعه من الترقى فيها على ماينبغى وتشغله عما يتعلق به من الامور الجسمانية فصاحب هذه المرتبة غير كامل على الاطلاق ولا سعيد تام* وان صاحب المرتبة الاخري هو السعيد التام وهو الذى توفر حظه من الحكمة فهو مقيم بروحانيته بين الملأ الاعلى يستمد منهم لطائف الحكمة ويستنير بالنور الالهى ويستزيد من فضائله بحسب عنايته بها وتلة عوائقه عنها ولذلك يكون أبدا خاليا من الآلام والحسرات التى لا يخلو صاحب المرتبة الاولى منها ويكون مسرورا أبدا بذاته مغتبطا بحاله وبما يحصل له دائما من فيض نور الاول فليس يسر الا بتلك الاحوال ولا يغتبط الا بتلك المحاسن ولا يهش الا لاظهار تلك الحكمة بين أهلها ولا يرتاح الا لمن ناسبه أو قاربه وأحب الاقتباس منه وهذه هى المرتبة التى من وصل اليها فقد وصل الى آخر السعادات وأقصاها وهو الذى لايبالي بفراق الاحباب من أهل الدنيا ولا يتحسر على مايفوته من التنعم فيها وهو الذي يرى جسمه وماله وجميع خيرات الدنيا التي عددناها في السعادات التى فى بدنه والخارجة عنه كلها كلاً عليه الا في ضرورات يحتاج

اليها لبدنه الذي هو مربوط به لايستطيع الانحلال عنه الا عند مشيئة خالقه وهو الذي يشتاق الى صحبة اشكاله وملاقاة من يناسبه من الارواح الطيبة والملائكة المقربين وهو الذي لا يفعل الا ما أراده الله منه ولا يختار الا ماقرب اليه ولا يخالفه الي شيء من شهواته الرديئة ولا ينخدع بخدائع الطبيعة ولا يلتفت الي شيء يعوقه عن سعادته وهو الذي لايحزن على فقد محبوب ولا يتحسر علي فوت مطلوب الا ان هذه المرتبة الاخيرة تتفاوت تفاوتا عظيما أعنى أن من يصل اليها من الناس يكونون على طبقات كثيرة غير متقاربة وهاتان المرتبتان هما اللتان ساق الحكيم الكلام اليهما واختار المرتبة الاخيرة منهما وذلك في كتابه المسمى فضائل النفس(وأنا أورد الفاظه التى نقلت الى العربية بعينها) قال أول رتب الفضائل التى تسمى سعادة أن يصرف الانسان ارادته ومحاولاته الى مصالحه في العالم المحسوس والامور المحسوسة من أمور النفس والبدن وما كان من الاحوال متصلا بهما ومشاركا لهما من الامور النفسانية ويكون تصرفه في الاحوال المحسوسة تصرفا لايخرج به عن الاعتدال الملائم لاحواله الحسية * وهذه

حال قد يتلبس فيها الانسان بالاهواء والشهوات الا ان ذلك بقدر معتدل غير مفرط وهو الي ماينبغي أقرب منه الى مالا ينبغي وذلك انه يجري أمره نحو صواب التدبير المتوسط في كل فضيلة ولا يخرج به عن تقدير الفكر وان لابس الامور المحسوسة وتصرف فيها ﴿ثم الرتبة الثانية﴾ وهي التي يصرف الانسان فيها ارادته ومحاولاته الي الامر الافضل من صلاح النفس والبدن من غير ان يتلبس مع ذلك بشيء من الاهواء والشهوات ولا يكترث بشيء من النفسيات المحسوسة الا بما تدعوه اليه الضرورة ثم تتزايد رتبة الانسان في هذا الضرب من الفضيلة وذلك ان الاماكن والرتب في هذا الضرب من الفضائل كثيرة بعضها فوق بعض وسبب ذلك أما اولا فاختلاف طبائع الناس وثانيا على حسب العادات وثالثا بحسب منازل الناس ومواضعهم من الفضل والعلم والمعرفة والفهم ورابعا بحسب هممهم وخامسا بحسب شوقهم ومعاناتهم ويقال أيضا بحسب جدهم * ثم تكون النقلة في آخر هذه المرتبة أعني هذا الصنف من الفضيلة الى الفضيلة الالهية المحضة وهي التي لا يكون فيها تشوف الى آت ولا تلفت الى

ماض ولا تشييع لحال ولا تطلع الى ناء ولا ضن بقريب ولا خوف ولا فزع من أمر ولا شغف بحال ولا طلب لحظ من حظوظ الانسانية ولا من الحظوظ النفسانية أيضا ولا ماتدعو الضرورة اليه من حاجة البدن والقوى الطبيعية ولا القوي النفسانية لكن يتصرف بتصرف الخير العقلى فى أعالى رتب الفضائل وهو صرف الوكد (1) الى الامور الالهية ومعاناتها ومحاولاتها بلا طلب عوض أعني أن يكون تصرفه فيها ومعاناته ومحاولته لها لنفس ذاتها فقط وهذه الرتبة أيضا تتزايد بالناس بحسب الهمم والشوق وفضل المعاناة والمحاولة وقوة النحيزة (2) وصحة الثقة وبحسب منزلة من بلغ الى هذا المبلغ من الفضيلة في هذه الاحوال التي عددناها الى أن يكون تشبهه بالعلة الاولى واقتداؤه بها وبأفعالها * وآخر المراتب في الفضيلة أن تكون أفعال الانسان كلها افعالا الهية وهذه الافعال هي خير محض والفعل اذا كان خيرا محضا فليس يفعله فاعله من أجل شيء آخر غير الفعل نفسه وذلك أن الخير المحض هو غاية متوخاة لذاتها أى هو الأمر المطلوب المقصود لذاته والامر الذى

(1) الوكد القصد ووكد وكده قصد قصده اه (2) النحيزة الطبيعة اه

هو غاية في نهاية النفاسة ليس يكون من أجل شيء آخر فافعال الانسان اذا صارت كلها الهية فهي كلها انما تصدر عن لبه وذاته الحقيقية التي هي عقله الالهي الذي هو ذاته بالحقيقية وتزول وتهدر وتموت سائر دواعي طباعه البدني بسائر عوارض النفسين البهيميتين وعوارض التخيل المتولد عنهما وعن دواعي نفسه الحسية فلا يبقى له حينئذ ارادة ولا همة خارجان عن فعله من أجلهما يفعل ما يفعل لكنه يفعل ما يفعله بلا ارادة ولا همة في سوي الفعل أي لا يكون غرضه في فعله غير ذات الفعل وهذا هو سبيل الفعل الالهي فهذه الحال هي آخر رتب الفضائل التي يتقبل فيها الانسان أفعال المبدإ الاول خالق الكل عز وجل أعني أن يكون فيما يفعله لا يطلب به حظا ولا مجازاة ولا عوضا ولا زيادة لكن يكون فعله بعينه هو غرضه أي ليس يفعل من أجل شيء آخر سوى ذات الفعل ومعنى ذاته هو أن لا يفعل ما يفعله من أجل شيء غير فعله نفسه وذاته نفسها هي الفعل الالهي نفسه وهكذا يفعل الباري تعالى لذاته لا من أجل شيء آخر خارج عنه وذلك أن فعل الانسان في هذه الحال يكون كما قلنا خيرا محضا وحكمة محضة فيبدأ

بالفعل لنفس اظهار الفعل فقط لا لغاية اخرى يتوخاها
بالفعل وهكذا فعل الله عز وجل الخاص به ليس هو على
القصد الاول من أجل شيء خارج عن ذاته أعنى ليس ذلك
من أجل سياسة الاشياء التى نحن بعضها لانه لو كان كذلك
لكانت أفعاله حينئذ انما كانت وتكون وتتم بمشاركة الامور
التى من خارج ولتدبيرها وتدبير أحوالها واهتمامه بها وعلى
هذا تكون الاشياء التي من خارج اسبابا وعللا لافعاله
وهذا شنيع قبيح تعالى الله عنه علوا كبيرا لكن عنايته عز
وجل بالاشياء التي من خارج وفعله الذى يدبرها به ويرفدها
انما هو على القصد الثانى وليس يفعل ما يفعله من أجل الاشياء
انفسها لكن من أجل ذاته أيضا وذلك لاجل ان ذاته تفضل
لذاتها لا من أجل المفضل عليه ولا من أجل شيء آخر وهكذا
سبيل الانسان اذا بلغ الى الغاية القصوى في الامكان من
الاقتداء بالبارى عز وجل تكون أفعاله التى يفعلها على القصد
الاول من أجل ذاته نفسها التى هى الفعل الالهي ومن أجل
الفعل نفسه وان فعل فعلا يرفد به غيره وينفعه به فليس فعله
ذلك على القصد الاول من أجل ذلك الغير لكن يفعل بذلك

الخير مايفعله به بقصد ثان وفعله ذلك من أجل ذاته بالقصد الاول ومن أجل الفعل نفسه أى لنفس الفضيلة ولنفس الخير لان فعله ذلك فضيلة وخير ففعله لنفس الفعل لا لاجتلاب منفعة ولا لدفع مضرة ولا للتباهى وطلب الرياسة ومحبة الكرامة فهذا هو غرض الفلسفة ومنتهي السعادة الا أن الانسان لايصل الي هذه الحال حتى تفنى ارادته كلها التى بحسب الامور الخارجة وتفني العوارض النفسانية وتموت خواطره التى تكون عن العوارض ويمتلىء شعارا الهيا وهمة الهية وانما يمتلىء من ذلك اذاصفا من الأمر الطبيعي ألبتة ونفى منه نفيا كاملا ثم حينئذ يمتلىء معرفة الهية وشوقا الهيا ويوقن بالامور الالهية بمايتقرر في نفسه وفي ذاته التى هي العقل كما تقررت فيه القضايا الاول التي تسمى العلوم الاوائل الا أن تصور العقل ورؤيته في هذه الحال الأمور الالهية وتيقنه لها يكون بمعنى أشرف وألطف وأظهر وأشد انكشافا له وبيانا من القضايا الاول التي تسمى العلوم الاوائل العقلية فهذه الفاظ هذا الحكيم قد نقلتها نقلا وهي نقل أبى عثمان الدمشقي وهذا الرجل فصيح باللغتين جميعا أعنى اليونانية والعربية مرضى النقل عند جميع

من طالع هاتين اللغتين وهو مع ذلك شديد التحرى لايراد الالفاظ اليونانية ومعانيها في ألفاظ العرب ومعانيها لا تختلف في لفظ ولا معنى ومن رجع الي هذا الكتاب أعني المسمى بفضائل النفس قرأ هذه الالفاظ كما نقلتها * وليس تحصل هذه المراتب التي يترقى فيها صاحب السعادة التامة الا بعد أن يعلم أجزاء الحكمة كلها علما صحيحا ويستوفيها أولا أولا كما رتبناها في كتابنا المسمى بترتيب السعادات ومن ظن من الناس انه يصل اليها بغير تلك الطريقة وعلى غير ذلك المنهج فقد ظن باطلا وبعد عن الحق بعدا كثيرا وليتذكر فى هذا الموضع الخطأ العظيم الذى وقع فيه قوم ظنوا انهم يدركون الفضيلة بتعطيل القوة العاملة واهمالها وبترك النظر الخاص بالعقل واكتفائهم باعمال ليست مدنية ولا بحسب ماتقسطه التميز والعقل وقد سماهم قوم العاملة والناجية ولذلك رتبنا هذا الكتاب عقب ذلك الكتاب ليلحظ منهما السعادة الاخيرة المطلوبة بالحكمة البالغة وتهذب لها النفس وتهيأ لقبولها غسلا وتنقية من الامور الطبيعية وشهوات الابدان ولذلك سميته أيضا بكتاب طهارة الاعراق (وقد قال ارسطوطاليس

في كتابه المسمى بالاخلاق) ان هذا الكتاب لا ينتفع به الاحداث كثير منفعة ولا من هو في طبيعة الاحداث قال ولست أعني الحدث هاهنا حدث السن لان الزمان لا تأثير له في هذا المعنى وانما أعني السيرة التي يقصدها أهل الشهوات واللذات الحسية * وأما أنا فأقول اني ماذكرت هذه المرتبة الاخيرة من السعادة طمعا في وصول الاحداث اليها بل ليمر على سمعهم فقط وليعلم أن ههنا مرتبة حكمية لا يصل اليها أهلها الاعلون مرتبة حسب فليلتمس كل من نظر في هذا الكتاب المرتبة الاولى منها بالاخلاق التي وصفتها فان وفق بعد ذلك وأعانه الشوق الشديد والحرص التام وسائر ماذكرناه ووصفناه عن الحكيم فليترق في درجة الحكمة وليتصاعد فيها بجهده فان الله عز وجل يعينه ويوفقه فاذا بلغ الانسان الى غاية هذه السعادة ثم فارق بجسمه الكثيف دنياه الدنيئة وتجرد بنفسه اللطيفة التي عني بتطهيرها وغسلها من الادناس الطبيعية لاخراه العلية فقد فاز وأعد ذاته للقاء خالقه عز وجل إعدادا روحانيا ليس فيه نزاع الي تلك القوي التي كانت تعوقه عن سعادته ولا شوق اليها لانه قد تطهر منها وتنزه عنها ولم تبق فيه ارادة لها ولا حرص عليها وقد

استخلصها للقاء رب العالمين ولقبول كراماته وفيض نوره الذي كان غير مستعدله ولا فيه قبول من عطائه ويأتيه حينئذ الذي وعد به المتقون والابرار كما سبق الايماء اليه مرارا في قوله عز وجل فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وفي قول النبي صلى الله عليه سلم هناك . الاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر * (واذ قد لخصنا أمر هاتين المنزلتين من السعادة القصوى)فقد تبين بيانا كافيا ان احداهما بالاضافة الينا أولى والاخرى ثانية ومن المحال أن نسلك الى الثانية من غير أن نمر بالاولى * فقد وجب أن نعود الى مابدأنا به من ذكر الرتبة الاولى من السعادة الاخيرة ونستوفي الكلام فيها وفى الاخلاق التى بنينا الكتاب عليها ونخلي عن بيان الرتبة الثانية الى وقت آخر فنقول * ان من عني ببعض القوى التى ذكرناها دون بعض أوتعمد لاصلاحها فى وقت دون وقت لم تحصل له السعادة وكذلك يكون حال الرجل فى تدبير منزله اذا عني ببعض أجزائه دون بعض أوفى وقت دون وقت فانه لا يكون مدبر منزل وكذلك حال مدبر المدينة اذا خص بنظره طائفة دون طائفة أو وقتا دون وقت

لم يستحق اسم الرياسة على الاطلاق (وارسطوطاليس)تمثل بأن قال ان الخطاف الواحد اذاظهر لايدل على طبيعة الربيع ولايوم واحد معتدل الهواء يبشر بالربيع فعلى طالب السعادة أن يطلب السيرة اللذيذة عنده فيسر بهادائما فان تلك السيرة هى واحدة ولذيذة فى نفسها فلذلك قلنا إنه ينبغى أن يتشوقها دائما ويثبت عليها أبدا * ولما كانت السير ثلاثة لانها تنقسم بانقسام الغايات الثلاثة التى يقصدها الناس أعنى سيرة اللذة وسيرة الكرامة وسيرة الحكمةوكانت سيرة الحكمة أشرفها وأتمها وكانت فضائل النفس كثيرة وجب أن يفضل الانسان بافضلها ويشرف باشرفها فسيرة الافاضل السعداء سيرة لذيذة بنفسها لان أفعالهم أبدا مختارة وممدوحة وكل انسان يلتذ بماهو محبوب عنده يلتذ بعدل العادل ويلتذ بحكمة الحكيم فالافعال الفاضلة والغايات التى ينتهي اليهابالفضائل لذيذةمحبوبةفالسعادةألذ من كل شئ ** وارسطوطاليس يقول ان السعادة الالهية وإن كانت كما ذكرناها من الشرف وسيرتها ألذ وأشرف من كل سيرة فانها محتاجة الى السعادات الاخر الخارجة لان تظهربها والا كانت كامنة غير ظاهرة واذا كانت كذلك كان صاحبها كالفاضل

النائم الذي لا يظهر فعله وحينئذ لا يكون بينه وبين غيره فرق كما وصفنا حالهما فيما تقدم * فالمطلع إذن على حقيقة هذه السعادة المتمكن من اظهار فعله بها هو الذي يلتذ بها وهو الذي يسر سرورا حقيقيا غير مموه ولا مزخرف بالباطل وهو الذي يخرج من حد المحبة الى العشق والهيمان وحينئذ يأنف أن يصير سلطانه العالي تحت سلطان بطنه وفرجه فلا يخدم باشرف جزء فيه أخس جزء فيه وأعني بالسرور المزخرف بالاباطيل اللذات التي تشركنا فيها الحيوانات التي ليست بناطقة فان تلك اللذات حسية تنصرم وشيكا وتملها الحواس سريعا * فاذا دامت عليها صارت كريهه وربما عادت مؤلمة وكما أن للحس لذة عرضية على حدة فكذلك للعقل لذة ذاتية على حدة لان لذة العقل لذة ذاتية ولذة الحس عرضية فمن لا يعرف اللذة بالحقيقة كيف يلتذ بها ومن لا يعرف الرياسة الذاتية كيف يصير اليها فلذلك قدمنا وصفها وشوقنا اليها باعادة الكلام فيها مرارا وقلنا من لا يعرف الخير المطلق والفضيلة التامة ولا يعرف الحكمة العملية يعني ايثار الافضل والعمل به والثبات عليه لا ينشط له ولا يرتاح اليه ومن كان كذلك

فكيف يلتذ ويتنعم بما شرحناه ودللنا عليه * وقد كان للحكماء المتقدمين مثل يضربونه ويكتبونه فى الهيا كل وهى مساجدهم ومصلاهم وهو هذا ﴿ الملك الموكل بالدنيا يقول ان ههنا خيرا وههنا شرا وههنا ماليس بخير ولا شر فمن عرف هذه الثلاثة حق معرفتها تخلص مني ونجا سالما ومن لم يعرفها قتلته شر قتلة وذلك انى لا أقتله قتلا وحيا ولكني أقتله أولا أولا فى زمان طويل فهذا المثل من نظر فيه وتأمله عرف منه جميع ماقدمنا ذكره ﴾ وينبغى أن يعلم أن السعيد الذى ذكرنا حاله مادام حيا تحت هذا الفلك الدائر بكواكبه ودرجاته ومطالع سعوده ونحوسه يرد عليه من النكبات والنوائب وأنواع المحن والمصائب ما يرد على غيره الا أنه لايذعر منها ولا يلحقه مايلحق غيره من المشقة في احتمالها لانه غير مستعد لسرعة الانفصال منها بعادة الهلع والجزع والاحزان ولا قابل أثر الهموم والاحزان بالاحوال العارضة وان أصابه من هذه الآلام شيء فهو يقدر على ضبط نفسه كيلا تنقله عن السعادة الى ضدها بل لاتخرجه عن حد السعادة ألبتة ولو ابتلى ببلايا أيوب عليه السلام أو اضعافها ما أخرجه عن

حد السعادة وذلك لما يجد فى نفسه من المحافظة على شروط الشجاعة والصبر على مايجزع منه أصحاب خور الطباع فيكون سروره أولا بذاته وبالاحاديث الجميلة التى تنشر عنه ويرى ان القاتل الذي يدعي الشطارة والمصارع الذى يهوى الغلبة كل واحد منهما يصبر على شدائد عظيمة من تقطيع أعضاء نفسه وترك الشهوات التى يتمكن منها طلبا لما يحصل له من الغلبة وانتشار الصيت فيرى نفسه أحرى وأولى منهما بالصبر اذ كان غرضه أشرف وصيته فى الفضلاء أبلغ وأشهر وا كرم ولانه يسعد في نفسه ثم يصير قدوة لغيره * وارسطوطاليس يقول إن بعض الاشياء التي تعرض من سوء البخت يكون يسيرا سهل المحتمل فاذا عرض للانسان واحتمله لم يكن فيه دلالة على كبر نفسه وعظم همته ومن لم يكن سعيدا ولا سبقت له رياسة بهذه الصناعة الشريفة من تهذيب الاخلاق فانه سينفعل انفعالا قويا فيعرض له عند حلول المصائب احدى الحالتين إما الاضطراب الفاحش والألم الشديد والخروج بها الى الحد الذي يرثى له ويرحم واما أن يتشبه بالسعداء ويسمع مواعظهم فيظهر الصبر والسكون الا أنه جزع الباطن متألم

الضمير وكما ان الاعضاء المفلوجة اذا حركت الى اليمين تحركت
الى الشمال كذلك تكون حركات نفوس الاشرار تتحرك الى
خلاف مايحملونها عليه من الجميل أعنى اذا تشبهوا بالاجواد
وأهل العدالة كانت هذه حالهم * ومما يستدل به من كلام
ارسطوطاليس على انه كان يقول ببقاء النفس وبالمعاد كلامه
المتداول فى كتاب الاخلاق وهو هذا قال * قد حكمنا ان
السعادة شيء ثابت غير متغير وقد علمنا أيضا أن الانسان قد
تلحقه تغيرات كثيرة واتفاقات شتى فانه قد يمكن لمن هو
أرغد الناس عيشا أن يصاب بمصائب عظيمة كما عرض فى برنامس
ومن يتفق له هذه المصائب ومات عليها فليس يسميه أحد
من الناس سعيدا وليس ينبغى على هذا القياس أن يسمى
انسان من الناس سعيدا مادام حيا بل ينتظر به آخر عمره ثم
يحكم عليه فالانسان اذن انما يصير سعيدا اذا مات الا ان هذا
قول في غاية الشناعة اذ كنا نقول ان السعادة هى خير ما ثم
قال فى هذا الموضع أيضا موضع شك فانه قد يظن بالميت
أن يلحقه خير وشر اذ قد يلحق الحى أيضا وهو لا يحس به مثل
الكرامة والهوان واستقامة أمر الاولاد وأولاد الاولاد فنى هذه

الاشياء خير لانه قد يمكن فيمن عاش عمره كله الى أن يبلغ الشيخوخية سعيدا وتوفي على هـذا السبيل أن يلحقه مثل هـذه التغييرات في أولاده حتى يكون بعضهم خيارا حسن السيرة وبعضهم بضد ذلك ومن البين انه قد يمكن أن يوجد بين الآباء والاولاد تباين واختلاف بكل جهة ولـكن من المنـكر أن يكون الميت بتغير غيره يصير مرة سعيدا ومرة أخرى شقيا ومن المنكر أن لاتكون أمور الاولاد متصلة بالوالدين فى وقت من الاقات ولـكن ينبغي أن نعود الى ماكان الشك واقعا فيه * فهذا الشك الذى أورده أرسطوطاليس على نفسه في هذا الموضع هو شك من يعتقد ان للانسان بعد موته أحوالا وانه يتصل به لامحالة من أمور أولاده وأولاد أولاده أحوال مختلفة بحسب أخلاق سير الاولاد فكيف ماتقول ليت شعرى في الانسان اذا مات سعيدا ثم لحقه من شقاء بعض أولاده أوسوء سيرة من يجي من نسله مايكون ضد سيرته وهو حى فانه ان غير سعادته كان هذا شنيعا وان لم يلحقه أيضا شيء من ذلك كان أيضا شنيعا * ثم ارسطوطاليس يحل هذا الشك بأن يقول ماهذا معناه * ان سيرة الانسان

ينبغي أن تكون سيرة محمودة لانه يختار في كل مايعرض له أفضل الاعمال من الصبر مرة ومن اختيار الافضل فالافضل مرة ومن التصرف في الاموال اذا اتسع فيها وحسن التجمل اذا عدمها ليكون سعيدا في جميع أحواله غير منتقل عن السعادة بوجه من الوجوه فالسعيد اذا ورد عليه نحس عظيم جعل سيرته أكثر سعادة لانه يداريه مداراة جميلة ويصبر على الشدائد صبرا حسنا ومتي لم يفعل ذلك كدر سعادته ونغصها وجلب له أحزانا وغموما تعوقه عن أفعال كثيرة والجميل اذا ظهر من السعداء في هذه الاحوال والافعال كان أشدا شراقا وحسنا وذلك اذا احتمل ما كبر وعظم من المصائب احتمالا سهلا بعد أن لا يكون ذلك لعدم حسه ولا انقصان فهمه بالامور بل لشهامته وكبر نفسه * قال اذا كانت الافعال هى ملاك السيرة كما قلنا فليس يكون أحد من السعداء شقيا لانه ليس يفعل في وقت من الاوقات أفعالا مرذولة فاذا كان هكذا فالسعيد أبدا يكون مغبوطا وان حلت به المصائب التى حلت ببرنامس ولا يكون أيضا شقيا ولا سريع التنقل من ذلك لانه ليس ينتقل عن السعادة بسهولة ولا تنقله عنها

الاوقات اليسيرة بل لاتنقله عنها الآفات العظيمة الكثيرة وليس انما يكون سعيدا اذا نالته هذه الامور زمانا يسيرا بل اذا ظفر بامور جميلة فى زمان طويل * ثم قال بعد قليل وأما حال الانسان بعد موته فالقول بان الافات التي تعرض لاولاد الميت واصدقائه باجمعهم ليست تتعلق به اصلا مضاد لما يعتقده جميع الناس واذ كانت الامور العارضة لهؤلاء كثيرة متيقنة وكان بعضها يتعداهم الى الميت أكثر وبعضها اقل صارت قسمتنا اياها الى الاشياء الجزئية بلا نهاية واما اذا قيل قولا كليا وعلى طريق الرسم فخليق ان نكتفي بما نقوله فيها * وهو انه كما ان الافات التى تعرض للميت فى حياته بعضها يثقل عليه احتماله ويثلم فى سيرته وبعضها يخف عليه احتماله كذلك يكون حاله فيما يعرض لاولاده واصدقائه وكل واحد من العوارض التي تعرض للاحياء مخالف لما يعرض لهم اذا ماتوا أكثر من مخالفة كل مايضرب به المثل ويشبه ان كان يصل اليهم من هذه الاشياء شيء خيرا كان او شرا ان يكون يسيرا نزرا بمقدار مالا يجعل غير السعيد سعيدا ولا ينتزع السعادة من السعداء هذا حل أرسطوطاليس للشك الذي أورده

ولما قلنا إن السعادة ألذ الاشياء وأفضلها وأجودها وأوضحها وجب ان نبين وجه اللذة فيها بأتم كما قلناه فيما مضى ان اللذة تنقسم قسمين أحدهما لذة انفعالية والاخرى لذة فعلية أي فاعلة فاما اللذة الانفعاليــة فهى شبيهة بلذة الاناث واللذة الفاعلة تشبه لذة الذكور ولذلك صارت اللذة الانفعالية هي التي تشركنا فيه الحيوانات التي ليست بناطقة وذلك انها مقترنة بالشهوات ومحبة الانتقام وهى انفعالات النفسين البهيمتــين وأما اللذة الاخري فهى الفاعلة وهي التي يختص بها الحيوان الناطق ولانها غير هيولانية ولا منفعلة انفعالا لانها صارت لذة تامه وتلك ناقصة وهذه ذاتية وتلك عرضية وأعنى بالذاتية والعرضيه ان اللذات الحسية المقترنه بالشهوات تزول سريعا وتنقضى وشيكا بل تنقلب لذاتها فتصير غير لذات بل تصير آلاما كثيرة أو مكروهة بشعة مستقبحة وهذه اضداد اللذة ومقابلاتها وأما اللذة الذاتية فانها لا تصير في وقت آخر غير لذة ولا تنتقل عن حالتها بل هي ثابتة ابدا واذا كانت كذلك فقد صح حكمنا ووضح أن السعيد تكون لذته ذاتية لا عرضية وعقلية لا حسية وفعلية لا انفعالية والهية لا بهيمية ولذلك قالت

الحكماء ان اللذة اذا كانت صحيحة ساقت البدن من النقص الى التمام ومن السقم الى الصحة وكذلك تسوق النفس من الجهل الى العلم ومن الرذيلة الى الفضيلة الا أن ههنا سرا ينبغى أن يقف عليه المتعلم وهو أن ميله الى اللذة الحسية ميل قوى جدا وشوقه اليها شوق مزعج وليس تزيد العادلة فى قوة الطبع الذى لنا كثير زيادة لفرط ما جبلنا عليه في المبدأ من القوة والشوق ولذلك متى كانت هذه اللذة حسية قبيحة جدا ثم مال الطبع اليها بافراط وانفعل عنها بقوة استحسن الانسان فيها كل قبيح وهون على نفسه منها كل صعب ولم ير موضع الغلط ولا مكان القبيح حتى تبصر الحكمه ، وأما اللذة العقليه الجميلة فأمرها بالضد وذلك ان الطبع يكرهها فان انصرف الانسان اليها بمعرفته وتمييزه احتاج فيها الى صبر ورياضة حتى اذا تبصر فيها وتدرب لها انكشف له حسنها وبهاؤها وصار بالضد مما كان فى الحس * ومن هنا تبين أن الانسان فى ابتداء كونه محتاج الى سياسة الوالدين ثم الى الشريعة الالهية والدين القيم حتى تهديه وتقومه الى الحكم البالغة ليتولى تدبيره الى آخر عمره وقد تبين مع ذلك تعلق السعادة بالجود وذلك أنا قد بينا

انها لذة فاعلة ولذة الفاعل أبدا تكون في الاعطاء ولذة المنفعل أبداً تكون في الاخذ وليس تظهر لذة السعيد الا بابراز فضائله واظهار حكمته ووضعها كفائته في مواضعها وكذلك البناء الحاذق والصانع اللطيف والموسيقاني المحسن وبالجملة كل صانع حاذق فاضل في صناعته يسر باظهار فضائله واذاعتها بين أهلها ومستحقيها وهذا هو معنى الجود الا أن الجود باعلى الاشياء وأكرمها أفضل وأشرف من الجود بأدونها وأخسها وقد عرض لهذا الجود مع شرفه وعلو مرتبته ضد ماعرض لذلك الجود الآخر مع نزارته وقلته وذلك ان صاحب الاموال والمقتنيات الخارجة كلها ينتقص ماله بالانفاق وينثلم بالبذل وتفنى ذخائره * وأما صاحب السعادة التامة فان أمواله لا تنتقص بالانفاق بل تزيد ولا تفني ذخائره بالتبذير بل تنمو وتلك معرضة للآفات الكثيرة من الاعداء واللصوص وسائر المتسلطين وهذه محروسة من كل آفة لا سبيل للاشرار والاعداء اليها بوجه ولا سبب * فقد ظهرت لذة السعيد كيف تكون ومن أين تبتدي والى أين تنتهى وكيف يكون السرور الحقيقى واللذة الذاتية وتبين أيضاً انها أبدية وتامة

والهية وان ضدها هو الشقاء لذاته بالضد وعلى العكس أعنى ان لذاته كلها عرضية ومنتقلة عن طبائعها الى اضدادها حتى تصير مؤلمة أو مكروهة وانها غير الهية بل شيطانية وغير ممدوحة بل هى مذمومة وذلك بأن ينظر في السعادة هل هى ممدوحة فان ارسطوطاليس يقول ان الاشياء التي هى في غاية الفضل لايوجد لها مدح لانها أفضل وأمدح وأجل من أن تمدح قال وذلك انا قد ننسب المتألهين والخيار من الناس الى السعادة وليس يوجد أحد من الناس يمدح السعادة نفسها كما يمدح العدل لكنه يجلها ويكرمها الي أنها أمر الهى بلاشياء التي هى أفضل من المدح وهو الله تعالى والى الخير فان المدح هو الفضيلة والعمل بها ثم انتهى كلامه هذا الى أن قال فالله تعالى أكرم وأشرف من أن يمدح بل انما يمجدوه ونحن نمجد الله تعالى ونقدسه تمجيدا كثيرا وأما السعادة فلأنها أمر الهى وانما تفعل الاشياء كلها لاجلها فهي كذلك أيضا ممجدة فعلى هذا الامر ينبغي أن لا تمدح السعادة لانها أجل من كل مدح بل نمجدها في نفسها وتمدح الامور كلها بها وبقدر قسطها منها

(تمت المقالة الثالثة من كتاب تهذيب الاخلاق)

* (المقالة الرابعة) *

قد قلنا فيما سلف ان السعادة تظهر فى الافعال من العداله والشجاعة والعفة وسائر ما تحت هذه الانواع التي أحصيناها وحددناها وهذه الافعال قد تظهر ممن ليس بسعيد ولا فاضل وذلك انه قد يعمل بعض الناس عمل العدول وليس بعادل ويعمل عمل الشجعان وليس بشجاع ويعمل عمل الاعفاء وليس بعفيف مثال ذلك ان من ترك الشهوات من المآكل والمشارب وسائر اللذات التى ينهمك فيها غيره اما لانه ينتظر منها أكثر مما يحضره واما لانه لا يعرفها ولم يباشرها كالاعراب الذين يبعدون عن البلاد وكالرعاة فى البوادى وقلل الجبال واما لانه ممتلئ مما يجده ويحضره وأما لجمود شهوته ونقصان تركيبه واما لانه استشعر خوفا من تناولها ومكروها يلحقه بسببها * واما لانه ممنوع منها فان هؤلاء كلهم يعملون عمل الاعفاء وليسوا باعفاء على الحقيقة وانما يسمى عفيفا على الحقيقة من وفى العفة حدها المذكور فيما تقدم واختارها لنفسها لا لغرض آخر غيرها وآثرها لانها فضيلة ثم تناول كل واحدة من شهواته بمقدار الحاجة ومن الوجه الذى ينبغي

وفي الوقت الذي ينبغي وعلى الحال الذى ينبغى وكذلك حال الذي يعمل اعمال الشجعان وليس بشجاع وذلك ان من باشر الحروب واقدم على ركوب الاهوال لبعض ما يوصل اليه المال أو لبعض الرغبات التي لاتحد كثرة فان مثل هذا يعمل عمل الشجعان ولكن يعمله بطبيعة الشره لا بطبيعة الفضيلة التي تدعى شجاعة وكل من كان اكثر اقداماو اصبر على الاهوال لهذه الاحوال يجب أن يكون أكثر شرها ونهما لاأكثر شجاعة وذلك انه يخاطر بنفسه الشريفة ويصبر على المكاره العظيمة طمعا في المال وما يوصل اليه بالمال وقد رأينا اهل الشقاوة يعملون عمل الاعفاء وعمل الشجعان وهم أبعدالناس عن كل فضيلة وذلك انهم يصبرون عن الشهوات كلهاويصبرون على عقوبات السلطان وضرب السياط وتقطيع الاعضاء والجراحات التي لا يؤمن منها ويتهون فيه الى أقصى الصبر على الصلب وتمل العيون وقطع الايدى والارجل وضروب التمثيل طلبا لاسم وذكر بين قوم في مثل حالهم من سوء الاختيار ونقصان الفضائل * وقد يعمل أيضا عمل الشجعان من يخاف لائمة عشيرته أو عقوبة سلطان أو خوف سقوط

جاهه أوما أشبه ذلك * وقد يعمل عمل الشجعان من اتفق له
مراراً كثيرة أن يغلب أقرانه فهو يقدم ثقة منه بالعادة الجارية
وجهلا بمواقع الاتفاقات وقد يعمل عمل الشجعان العشاق وذلك
أنهم يركبون الاهوال فى طلب المعشوق ولرغبتهم في الفجور
أو لحرصهم على متعة العين منهم لا لطلب الفضيلة ولا لاختيار
الموت الجميل على الحياة الرديئة كما يفعل الشجاع بالحقيقة * وأما
شجاعة الاسد والفيل واشباههما من الحيوان فانها تشبه
الشجاعة وليست بشجاعة حقيقية وذلك انها قد وثقت بقوتها
وانها تفوق غيرها فهى تقدم لا بطبيعة الشجاعة بل لتمام القدرة
وثقة النفس والغلبة وما كان منها سبعا فهو مع هذه الحال
مزاح العلة في السلاح الذي عدمه وهو كصاحب السلاح
منا اذا قدم على الاعزل وليست هذه شجاعة مع عدم الاختيار
الذي يستعمله الشجاع وذلك ان الشجاع خوفه من الأمر
أشد من خوفه من الموت ولذلك يختار الموت الجميل على الحياة
القبيحة علي ان لذة الشجاع ليست تكون فى مبادى أموره
فان مبادى الامور تكون مؤذية له لكنها تكون في عواقب
الامور وتكون أيضا باقية مدة عمره وبعد عمره لاسيما اذا

حامي عن دينه وعن اعتقاداته الصحيحة في وحدانية الله عز وجل والشريعة التي هى سياسة الله وسنته العادلة التي بها مصالح العباد فى الدنيا والآخرة فان مثل هذا اذا فكر فى قصر مدة عمره وعلم انه لامحالة سيموت بعد ايام ثم كان محبا للجميل ثابتا على الرأى الصحيح فهو لامحالة يحامي عن دينه ويمنع العدو من استباحة حريمه والتغلب على مدينته ويأنف من الفرار ويعلم ان الجبان اذا اختار الفرار فانما يستبقي شيئا هو لامحالة فان زائل وان تأخر أياما معدودة ثم هو في هذه الحياة اليسيرة ممقوت مكدر الحياة بالذل وضروب الصغار وهذه حال الشجاع مع قوى نفسه أعنى بمقاومة شهواته واستسلامه فان حال تلك الحالة الاولي بعينها ومن سمع كلام الامام صلوات الله عليه الذي صدوره عن حقيقة الشجاعة اذ قال لاصحابه ﴿أيها الناس ان لم تقتلوا تموتوا والذي نفس ابن ابي طالب بيده لألف ضربة بالسيف على الرأس أهون من ميتة على الفراش﴾ تبين له ان جميع ما أحصيناه للانسان ليس بمعدود فيها وان كان يشبهها بالصورة وذلك انه ليس كل من يقدم على الاهوال فهو شجاع ولا كل من لايخاف من الفضائح فهو شجاع وذلك

ان من لا يفزع من ذهاب شرفه أو فضيحة حرمه أو عند حدوث الرجفات والزلازل والصواعق أو الزمانة في الامراض أو عدم الاخوان والاصدقاء أو عند اضطراب البحر وهول الامواج وهواء هائج فهو بان يوصف بالجنون مرة وبالقحة مرة أولى بان يوصف بالشجاعة وكذلك من خاطر بنفسه في وقت الامن والطمأنينة بان يثب من سطح عال أو يصعد مرتقى صعبا أو يحمل نفسه على خوض ماء غزير وهو لا يحسن السباحة أو يساور جملا هائجا أو ثورا صعبا أو فرسا لم يرض من غير ضرورة تدعوه الى ذلك بل مرآة بالشجاعة واظهار مرتبة الشجعان فهو بان يسمى مطرمذا مائقا أولى منه بان يسمى شجاعا وأما من خنق نفسه خوفا من الفقر أو الذل أو أهلكها بالسم وما أشبهه من باب الضيم فهو بان يوصف بالجبن أولى منه بان يوصف بالشجاعة وذلك ان الاقدام وقع منه بطبيعة الجبن لا بطبيعة الشجاعة فان الشجاع يصبر على ما يرد عليه من الشدائد صبرا جميلا ويعمل اعمالا تليق بتلك الحال كما شرحناه فيما تقدم ولذلك يجب أن يعظم الشجاع ويشح بنفسه وحقيق على السلطان خاصة والقيم بامر الدين والملك أن

ينافس فيه ويجل قدره ويعلي خطره ويميزه من سائر من يتشبه به
ممن ذكرناه فقد تبين من جميع ماقلناه ان الشجاع هو الذي
يستهين بالشدائد في الامور الجليلة ويصبر على الامور الهائلة
ويستخف بما يستعظمه عوام الناس حتى بالموت لاختيار الامر
الافضل ولا يحزن على مالا درك فيه ولا يضطرب عند
مايفدحه من المصائب ويكون غضبه اذا غضب بمقدار
مايجب وعلى من يجب وفي الوقت الذي يجب وكذلك يكون
انتقامه على هذه الشرائط فان الحكماء قالوا ان من لا ينتقم
يلحق قلبه ذبول فاذا انتقم عاد الى حالته من النشاط وهذا
الانتقام اذا كان بحسب الشجاعة كان محمودا واذا لم يكن كذلك
كان مذموما * فقد نقل الينا في الاخبار المأثورة عمن أقدم
على سلطان قوى ورام ان ينتقم منه فاهلك نفسه من غير أن
يضر سلطانه روايات كثيرة وكذلك حال من أقدم على قرن
قوي أو خصم الدّ لا يستطيع مقاومته فان الانتقام منه يعود
وبالا عليه وزيادة في الذل والمعجزة * فاذن ليست تتم شرائط
الشجاعة والعفة الا للحكيم الذى يستعمل كل شيء في موضعه
الخاص به وبقدر إقساط العقل له فكل شجاع عفيف حكيم

وكل حكيم شجاع عفيف وهـذه الحال بعينها تظهر فيمن عمل عمل الأسخياء وليس بسخي وذلك ان من بذل امواله في شهواته طلبا للسمعة والرياء أو تقربا الى السلطان أو لدفع مضرة عن نفسه وحرمه وأولاده أو بذلهـا لمن لا يستحق من أهـل الشر أو الملهين أو المساخر أو بذلها لطمع في أكثر منها على سبيل التجارة والمرابحة فكل هؤلاء يعمل عمل الاسخياء وليس بسخي أما بعضهم فيبذل ماله بطبيعة الشره وأما بعضهم فبطبيعة الطرمذة والرياء وبعضهم على طريق الازدياد من المال والربح فيه وأما بعضهم فعلى سبيل التبذير وقلة المعرفة بقـدر المال وهذا اكثر ما يعرض للوراث ولمن لايتعب في اكتساب المال فـلا يعرف صعوبة الامر فيـه وذلك ان المال صعب الاكتساب سهل الانفاق والتفرقة وقد شبهه الحكماء بمن يرفع حملا ثقيلا الى قلة جبل ثم يرسله فان الامر في ترقيته واصعاده صعب ولكن ارساله من هنالك أمر سهل والحاجة الى المال ضرورية في العيش وهو نافع في إظهار الحكمة والفضيلة ومن اكتسبه من وجهه صعب عليه وذلك أن المكاسب الجميلة قليلة ووجوهها يسيرة عند الرجل العادل

الحر وأما غير العادل الحر فليس يبالى كيف اكتسبه ومن اين وصل اليه ولاجل ذلك يوجد كثير من الاحرار والفضلاء ناقص الحظ منه ويوجدون أيضا ذامين للبخت شاكين منه وأما اضدادهم فلاجل انهم يكتسبون المال من وجوه الخيانات ولا يبالون كيف وصل اليهم فانهم يوجدون أبدا وافرى الحظ منه واسعى النفقات شاكرين لبختهم والعامة يغبطونهم ويحسدونهم الا أن العاقل اذا رأى نفسه وهو برىء من المذمات نقى العرض من السوءات لم يتدنس بالقبيح من المكاسب ولم يتطرق اليه بخيانة ولا سرقة ولا ظلم لمن هو دونه أو مثله وتجنب فيه وجوه العار والفضائح كالقيادة والخداع وترويج السلع القبيحة على الملوك واستنزالهم عن أموالهم بالخدع والمكر ومساعدتهم على الفواحش وتحسين القبائح فيما يوافق هواهم وما يجري مجرى ذلك من السعاية والنميمة والغيبة وضروب الفساد التي يرتكبها طلاب المال من غير وجهه بضروب المغابنات ووجوه الظلم يسر بنفسه ويعتاض من المال الراحة والمحمدة فلا يلوم البخت ولا يبغض الدول ولا يحسد أصحاب الاموال المكتسبة من غير وجوهها

الجميلة فهذه أحوال المكتسبين للاموال ومنفقيها وكذلك حال من عمل عمل العدول وليس بعدل وذلك انه اذا عدل في بعض الامور مراءاة ليصل به الى كرامة أو مال أو غير ذلك من الشهوات أو لغرض آخر مما عددناه فيما تقدم فليس هو عادلا وانما يعمل عمل العدول للغرض الذي يقصده وينبغي أن ينسب فعله الى غرضه فانه بحسب هذا يفعل ذلك كما قلنا وشرحنا فاما العادل بالحقيقة فهو الذى يعدّل قواه وأفعاله وأحواله كلها حتى لا يزيد بعضها على بعض ثم يروم ذلك فيما هو خارج عنه من المعاملات والكرامات ويقصد فى جميع ذلك فضيلة العدالة نفسها لا غرضا آخر سواها وانما يتم له ذلك اذا كانت له هيئة نفسانية أدبية تصدر عنها أفعاله كلها بحسبها ولما كانت العدالة وسطا بين اطراف وهيئة يقتدر بها على رد الزائد والناقص اليه صارت أتم الفضائل وأشبهها بالوحدة وأعني بذلك ان الوحدة هى التي لها الشرف الاعلى والرتبة القصوى وكل كثرة لا يضبطها معنى يوحدها فلا قوام لها ولا ثبات والزيادة والنقصان والكثرة والقلة هي التي تفسد الاشياء اذا لم يكن بينها مناسبة تحفظ عليها الاعتدال بوجه مّا فالاعتدال

هو الذى يرد اليها ظل الوحدة ومعناها وهو الذى يلبسها شرف الوحدة ويزيل عنها رذيلة الكثرة والتفاوت والاضطراب الذى لا يحد ولا ينضبط بالمساوات التى هى خليفة الوحدة فى جميع الكثرات واشتقاق هذا الاسم يدلك على معناه وذلك أن العدل [1] فى الاحمال والاعتدال فى الاثقال والعدالة في الافعال مشتقة من معنى المساوات والمساوات هي أشرف النسب المذكورة فى صناعة الارثماطيقى ولذلك لا تنقسم ولا يوجد لها أنواع وانما هى وحدة في معناها أو ظل للوحدة فاذا لم نجد المساوات التى هى المثل بالحقيقة فى الكثرة عدلنا الى النسب المذكورة التى تنحل اليها وتعود الى حقيقتها وذلك انا حينئذ نضطر الى أن نقول نسبة هذا الى هذا كنسبة هذا الى هذا ولذلك لا توجد النسبة الا بين أربعة أو ثلاثة يتكرر فيها الوسط فتصير أيضا أربعة والنسبة الاولى تسمى منفصلة والثانية تسمى متصلة ومثال الاولى ا ب ج د فنقول نسبة (ا) الى (ب) كنسبة (ج) الى (د) ومثال الثانية أن نأخذ الباء مشتركا فنقول نسبة (ا) الى (ب) كنسبة (ب) الى

(١) العدل بكسر العين اه

(ج) وهذه النسبة توجد في ثلاثة اشياء وهي النسبة العددية والنسبة المساحية والنسبة التأليفية وجميع ذلك مبين مشروح فى المختصر الذى عملناه في صناعة العدد * وأما سائر النسب فراجعة اليها ولذلك عظمها الاوائل واستخرجوا بها العلوم الجمة الشريفة ولما كانت نسبة المساواة عزيزة لانها نظيرة الوحدة عدلنا الى حفظ هذه النسب الأخر فى الامور الكثيرة التي تلابسها لانها عائدة اليها وغير خارجة عنها فنقول * ان العدالة موجودة فى ثلاثة مواضع أحدها قسمة الاموال والكرامات والثانى قسمة المعاملات الارادية كالبيع والشراء والمعاوضات والثالث قسمة الاشياء التى وقع فيها ظلم وتعدى فاما العدالة فى الامور التي تكون في القسم الاول فتكون بالنسبة المنفصلة التي بين الاربعة أعنى أن تكون نسبة الاول الى الثاني كنسبة الثالث الى الرابع مثال ذلك أن يقال نسبة هذا الانسان الى هذه الكرامة أو الى هذا المال كنسبة كل من كان فى مثل مرتبته الى مثل قسطه فاذاً يجب أن يوفر عليه ويسلم اليه * وأما فى الامور التى تكون في القسم الثاني أعني المعاملات والمعاوضات فيكون بالنسبة المنفصلة مرة وبالنسبة المتصلة

أخرى مثال ذلك أن تقول نسبة هذا البزاز الى هذا الاسكاف كنسبة هـذا الثوب الى هـذا الخف ثم ليس يمنع مانع أن نقول نسبة البزاز الي الاسكاف كنسبة الاسكاف الى النجار أونقول نسبة الثوب الى الخف كنسبة الخف الى الـكرسى ويتبين لك من هذين المثالين أن النسبة الاولي تكون بالعمق فقط والنسبة الثانية تكون بالعرض والعمق جميعا أعني ان الاولى تقـع بين الـكليين والجزئيين وهو بالعمق أشبه والثانية تقع بالعرض فى الجزئيين وقد تقع بين الكليين والجزئيين أيضاً * وأما العدالة التى تقع فى المظالم والامور القسمية فهى بالنسبة المساحية أشبه وذلك ان الانسان متي كان على نسبة من انسان آخر فابطل هذه النسبة بحيف أو ضرر يلحقه به فان العدالة توجب أن يلحق به ضرر مثله ليعود التناسب الى ما كان عليه فالعادل من شأنه أن يساوي بين الاشياء الغير المتساوية مثال ذلك ان الخط اذا قسم بقسمين غير متساويين نقص من الزائد وزاد على الناقص حتى يحصل له التساوى ويذهب عنه معنى القلة والكثرة ومعنى الزيادة والنقصان وكذلك الخفة والثقل وجميع ماأشبه ذلك ولكن

ينبغي أن يكون عالما بطبيعة الوسط حتى يمكنه أن يرد الطرفين اليه مثال ذلك الربح والخسران فانهما في باب المعاملات طرفان أحدهما زيادة والاخر نقصان فاذا اخذ أقل مما يجب صار الى جانب النقصان وان اخذ أكثر مما يجب كان خارجا الى جانب الزيادة والشريعة هي التي ترسم في كل واحد من هذه الاشياء التوسط والاعتدال لان الناس هم مدنيون بالطبع ولا يتم لهم عيش الا بالتعاون فبعضهم يجب أن يخدم بعضا ويأخذ بعضهم من بعض ويعطي بعضهم بعضا فهم يطلبون المكافأة المناسبة فاذا أخذ الاسكاف من النجار عمله وأعطاه عمله فهي المعاوضة اذا كان العملان متساويين ولكن ليس يمنع مانع أن يكون عمل الواحد خيرا من عمل الآخر فيكون الدينار هو المقوم والمسوى بينهما فالدينار هو عدل ومتوسط الا انه ساكت والانسان الناطق هو الذي يستعمله ويقوم به جميع الامور التى تكون بالمعاملات حتى تجري على استقامة ونظام ومناسبة صحيحة عادلة ولذلك يستعان بالحاكم الذي هو عدل ناطق اذا لم يستقم الامر بين الخصمين بالدينار الذى هو عدل ساكت وارسطوطاليس يقول ان الدينار ناموس عادل ومعنى الناموس

فى لغته السياسة والتدبير وما أشبه ذلك فهو يقول فى كتابه
المعروف بنيقوماخيا إن الناموس الاكبر هو من عند الله تبارك
وتعالى والحاكم ناموس ثان من قبله والدينار ناموس ثالث
فناموس الله تعالى قدوة النواميس كلها يعنى الشريعة والحاكم
الثاني مقتد به والدينار مقتد ثالث وانما قومت الاشياء
المختلفة بالاثمان المختلفة لتصح المشاركات والمعاملات ويتبين
وجه الاخذ والاعطاء فالدينار هو الذي يسوى بين المختلفات
ويزيد في شيء وينقص فى آخر حتى يحصل بينهما الاعتدال
فتستوي المعاملة بين الفلاح والنجار مثلا وهذا هو العدل
المدنى وبالعدل المدنى عمرت المدن وبالجور المدنى خربت
المدن وليس يمنع مانع من أن يكون عمل يسير يساوى عملا
كثيرا مثال ذلك أن المهندس ينظر نظرا قليلا ويعمل عملا يسيراً
ويساوى نظره هذا عملا كثيرا من أقوام يكدون بين يديه
ويعملون بما يرسمه وكذلك صاحب الجيش يكون تدبيره
ونظره يسيرا ولكنه يساوى أعمالا كثيرة ممن يحارب بين
يديه ويعمل الاعمال الثقيلة العظيمة فالجائر يبطل التساوى
وهو عند ارسطوطاليس على ثلث منازل فالجائر الاعظم هو

الذى لايقبل الشريعة ولايدخل تحتها والجائر الثانى هو الذى لايقبل قول الحاكم العادل في معاملاته وأموره كلها والجائر الثالث هو الذى لا يكتسب ويغتصب الاموال فيعطى نفسه أكثر مما يجب لها وغيره أقل مما يجب له قال فالمتمسك بالشريعة يعمل بطبيعة المساواة فيكتسب الخير والسعادة من وجوه العدالة لان الشريعة تأمر بالاشياء المحمودة لانها من عند الله عز وجل فلا تأمر الا بالخير والا بالاشياء التى تفعل السعادة وهي أيضا تنهى عن الرداآت البدنية وتأمر بالشجاعة وحفظ الترتيب والثبات في مصاف الجهاد وتأمر بالعفة وتنهي عن الفسوق وعن الافتراء والشتم والهجر [١] وبالجملة تأمر بجميع الفضائل وتنهى عن جميع الرذائل فالعادل يستعمل العدالة في ذاته وفى شركائه المدنيين والجائر يستعمل الجور في ذاته وفي أصدقائه ثم في جميع شركائه المدنيين قال وليست العدالة جزأ من الفضيلة بل هى الفضيلة كلها ولا الجور الذي هو ضدها جزأ من الرذيلة لكنه الرذيلة كلها فبعض أنواع الجور ظاهر يفعل بالارادة مثل ما يكون في البيع والشراء والكفالات

(١) الهجر بضم الهاء الفحش في القول اه

والقروض والعوارى وبعضها خفى يفعل أيضا بالارادة مثل السرقة والفجور والقيادة وخداع المماليك وشهادة الزور وبعضها غشمي على سبيل التغلب مثل التعذيب بالدهق[1] والقيود والاغلال فالامام الحاكم العادل بالسوية يبطل هذه الانواع ويخلف صاحب الشريعة فى حفظ المساواة فهو لا يعطي ذاته من الخيرات اكثر مما يعطى غيره ولذلك قيل فى الخبر ان الخلافة تطهر الانسان قال فاما العامة فانها تؤهل لمرتبة الامامة التي هى الخلافة العاملة بما ذكرناه من كان شريفا فى حسبه ونسبه وبعضهم يؤهل لذلك من كان كثير المال وأما العقلاء فانهم يؤهلون لذلك من كان حكيما فاضلا فان الحكمة والفضيلة هي التى تعطي الرياسات والسيادات الحقيقية وهى التى رتبت الثاني والاول في مرتبتيهما وفضلتهما على سائر الناس وأسباب المضرات كلها تفتن الى أربعة أنواع أحدها الشهوة والرداءة التابعة لها والثاني الشرور والجور التابع لها والثالث الخطأ ويتبعه الحزن والرابع الشقاء * أما الشهوة فانها تحمل الانسان على الاضرار بغيره الا انه لا يكون مؤثرا له

(١) الدهق القطع والتعذيب والاتعاب اه

ولا ملتذا به ولكنه يفعله ليصل به الى شهوته وربما كان متألما به كارها له الا أن قوة الشهوة تحمله على ارتكاب ما يرتكبه وأما الشرير فانه يتعمد الاضرار بغيره على سبيل الايثار له والالتذاذ به كمن يسعى الى السلطان ويحمله على ازالة نعمة لا يصل اليه منها شيء ولكن يلتذ بالمكروه الذي يصل الى غيره وأما الخطأ فان صاحبه لا يقصد الاضرار بغيره ولا يؤثره ولا يلتذ به بل يقصد فعلا ما فيعرض منه فعل آخر وصاحب هذا الفعل يحزن ويكتئب لما اتفق اليه من الخطأ وأما الشقا فصاحبه لا يكون مبدأ فعله ولا له فيه صنع بالقصد بل يوقعه فيه سبب آخر من خارج وذلك كمن تصدم بدابته صديقا له فتقتله فهذا يسمى شقيا وهو مرحوم معذور لا يجب عليه عتب ولا عقوبة وأما السكران والغضبان والغيران اذا فعلوا فعلا قبيحا فانهم يستحقون العتب والعقوبة لان مبدأ فعالهم اليهم وذلك أن السكران باختياره أزال عقله والغضبان والغيران اختارا الانقياد بهاتين القوتين اذا هاجتا بهما * ونعود الى ما كنا فيه من ذكر العدالة فنقول * ان أرسطوطاليس قسم العدالة الى أقسام ثلثه أحدها ما يقوم به الناس لرب العالمين

وهو ان يجري الانسان فيما بينه وبين الخالق عزوجل على ما ينبغي وبحسب مايجب عليه من حقه وبقدر طاقته وذلك ان العدل اذا كان انما هو اعطاء مايجب من يجب كما يجب فمن المحال أن لا يكون لله تعالى الذى وهب لنا هذه الخيرات العظيمة واجب ينبغي ان يقوم به الناس والثاني مايقوم به بعض الناس لبعض من أداء الحقوق وتعظيم الرؤساء وتأدية الأمانات والنصفة في المعاملات والثالث ما يقومون به من حقوق أسلافهم مثل أداء الديون عنهم وانفاذ وصاياهم وما أشبه ذلك فهذا ما قاله ارسطوطاليس * واما تحقيق ما قاله مما يجب لله عزوجل وان كان ظاهرا فانا نقول فيه ما يليق بهذا الموضع وهو أن العدالة لما كانت تظهر في الاخذ والاعطاء وفي الكرامات التى ذكرناها وجب أن يكون لما يصل الينا من عطيات الخالق عزوجل ونعمه التي لاتحصى حق يقابل عليه وذلك ان من أعطى خيرا ما وان كان قليلا ثم لم يرأن يقابله بضرب من المقابلة فهو جائر فكيف به اذا أعطى جما كثيرا وأخذ أخذا دائما ثم لم يعط في مقابلته شيئا ألبتة ثم على قدر النعمة التى تصل الى الانسان يجب أن يكون اجتهاده في المقابلة عليها ومثال ذلك ان الملك

الفاضل اذا أمن السرب[١] وبسط العدل واوسع العمارة وحمى الحريم وذب عن الحوزة ومنع من التظالم ووفر الناس على ما يختارونه من مصالحهم ومعايشهم فقد أحسن الى كل واحد من رعيته احسانا يخصه فى نفسه وان كان قد عمهم بالخير واستحق من كل واحد منهم أن يقابله ضربا من المقابلة متى قعد عنه كان جائرا اذ كان يأخذ نعمته ولا يعطيه شيئا لكن مقابلة الملك الفاضل من رعيته انما تكون باخلاص الدعاء ونشر المحاسن وجميل الشكر وبذل الطاعة وترك المخالفة فى السر والعلانية والمحبة الصادقة والائتمام بسيرته نحو استطاعته والاقتداء به في تدبير منزله واهله وولده وعشيرته فان نسبة الملك الى مدينته ورعيته كنسبة صاحب المنزل الي منزله واهله فمن لم يقابل ذلك الاحسان بهذه الطاعة والمحبة فقد جار وظلم وهذا الظلم والجور اذا كان فى مقابلة النعم الكثيرة فهو أفحش واقبح وذلك ان الظلم وان كان فى نفسه قبيحا فان مراتبه كثيرة لان مقابلة كل نعمة انما تكون بحسب منزلتها وموقعها وقدر فائدتها وعائدتها وعلى مقدار عددها فان كانت النعم

---

(١) السرب بالكسر النفس اه

كثيرة العدد وعظيمة الموقع فكيف يكون حال من لايلزم لها حقا ولا يرى عليها مقابلة بطاعة ولاشكر ولا محبة صادقة ولا مساة صالحة فاذا كان هذا معروفا غير منكر وواجبا غير مجحود في ملوكنا ورؤسائنا فكم بالحرى ان يكون لملك الملوك الذي يصل الينا في كل طرفة عين ضروب احسانه الفائض على اجسامنا ونفوسنا التي لايقع عليها احصاء ولا عدد من الحقوق الواجب علينا القيام بها والنهوض بتأديتها أترانا نجهل النعمة الاولى علينا بالوجود ثم تتابعها موآترة بعد ذلك بالخلق الجسداني الذي أفنى فيه صاحبي كتابى التشريح ومنافع الاعضاء الف ورقة * ثم لم يبلغ بعض ماعليه كنه الامر أم ترانا نجهل ماوهب لنا من نفوسنا وماركب فيهامن القوي والملكات التي لانهاية لها وما أمدها به من فيض العقل ونوره وبهائه وبركاته وما عرضنا به للملك الابدى والنعيم السرمدى (لا) لعمرى ما يجهل هذه النعمة الا النعم * فأما الانسان فيعرف من ذلك مايضطره اليه مشاهدة أحواله في جميع أوقاته * واذا كان الخالق تعالى غنيا عن معونتنا ومساعينا فمن المحال القبيح والجور الفاحش أن لا نلتزم نحن له حقا

ولانقابله على هـذه الآلاء والنعم بما يزيل عنا سمة الجور والخروج عن شريطة العدل الا أن أرسطوطاليس لم ينص في هـذا الموضع على العبادة التي يجب أن نلتزمها لخالقنا عز وجل غير انه قال ما هـذه حكايته * وقد اختلف الناس فيما ينبغي أن يقوم به المخلوقون لخالقهم فبعضهم رأى أنه صلوات وصيام وخدمة هياكل ومصليات وقرابين وبعضهم رأى أن يقتصر على الاقرار بربوبيته والاعتراف باحسانه وتمجيده بحسب استطاعته وبعضهم رأى أن يتقرب اليه بان يحسن الى نفسه بتزكيتها وحسن سياستها والاحسان الى المستحقين من أهل نوعه بالمواساة ثم بالحكمة والموعظة وبعضهم رأى ان اللهج بالفكر في الالهيات والتصرف نحو المحاولات التي يتزايد بها الانسان من معرفة ربه عز وجل حتى تتكامل معرفته به وبحقيقة وحدانيته وصرف الوكد اليه هو مايجب على الانسان لخالقه وبعضهم رأيان الواجب للرب جل ذكره على الناس ليس سبيله واحدا ولا هو شيء بعينه يلتزمه الجميع التزاما واحدا وعلى مثال واحدلكنه يختلف بحسب اختلاف طبقات الناس ومراتبهم من العلم فهذا ماقاله ارسطوطاليس

بالفاظه المنقولة الى العربية * وأما الحدث من الفلاسفة فانهم قالوا عبادة الله عزوجل على ثلاثة أنواع أحدها فيما يجب له على الأبدان كالصلوات والصيام والسعى الى المواقف الشريفة لمناجاة الله عزوجل والثاني فيما يجب له على النفوس كالاعتقادات الصحيحة وكالعلم بتوحيد الله عز اسمه وما يستحقه من الثناء والتمجيد وكالفكر فيما أفاضه على العالم من جوده وحكمته ثم الاتساع في هذه المعارف والثالث فيما يجب له عند مشاركات الناس فى المدن وهى في المعاملات والمزارعات والمناكح وفي تأدية الامانات مع نصحية البعض للبعض بضروب المعاونات وعند جهاد الاعداء والذب عن الحريم وحماية الحوزة * قالوا فهذه هى العبادات وهى الطرق المؤدية الى الله عز وجل وهذه الانواع وان كانت معدودة ومحصورة فانها منقسمة الى أنواع كثيرة واقسام غير محصاة وللانسان مقامات ومنازل عند الله عزوجل (فالمقام الاول) للموقنين وهو رتبة الحكماء واجلة العلماء (والمقام الثانى) مقام المحسنين وهو رتبة الذين يعلمون بما يعلمون وهو ما ذكرناه فى كتابنا هذا من الفضائل والعمل بها (والمقام الثالث) مقام الابرار وهو رتبة المصلحين وهؤلاء هم خلفاء الله بالحقيقة

فى اصلاح العباد والبلاد والمقام الرابع مقام الفائزين وهو رتبة
المخلصين في المحبة واليها تنتهى رتبة الاتحاد وليس بعدها منزلة
ولا مقام لمخلوق ويسعد الانسان بهذه المنازل اذا حصلت له
اربع خلال أولها الحرص والنشاط والثانى العلوم الحقيقة والمعاف
اليقينية والثالث الحياء من الجهل ونقصان القريحة اللذين
يحدثان بالاهمال والرابع لزوم هذه الفضائل والترقي فيها دائما
بحسب الاستطاعة فهذه أسباب الاتصال *

وهاهنا انقطاعات عن الله عز وجل ومساقط وهى التي تعرف
باللعاين فأولها السقوط الذي يستحق به الاعراض وتتبعه
الاستهانة والثاني السقوط الذي يستحق به الحجاب ويتبعه
الاستخفاف والثالث السقوط الذي يستحق به الطرد ويتبعه
المقت والرابع السقوط الذى يستحق به الخسأة ويتبعه البغض
وانما يشقى العبد اذا حصل على أربع خلال أولها الكسل
والبطالة ويتبعها ضياع الزمان وفناء العمر بغير فائدة انسانية
والثانى الغباوة والجهل المتولدان عن ترك النظر ورياضة النفس
بالتعاليم التى أحصيناها فى كتاب مراتب السعادات والثالث
الوقاحة التى ينتجها اهمال النفس اذا تتبعت الشهوات وترك

زمها عن ركوب الخطايا والسيئات والرابع الانهماك الذي يحدث من الاستمرار في القبائح وترك الانابة وهذه الانواع الاربعة مسماة فى الشريعة باربعة اسماء فالاول هو الزيغ والثانى هو الرين والثالث هو الغشاوة والرابع هو الختم ولكل واحدة من هذه الشقاوات علاج خاص سنذكره عندمداواة أسقام النفس حتى تعود الى الصحة باذن الله عز وجل وهذه الاشياء التى عددناها الآن لاخلاف بين الحكماء فيها وبين أصحاب الشرائع وانما تختلف بالعبارات والاشارات اليها بحسب اللغات وأفلاطون يقول ان العدالة اذا حصلت للانسان اشرق بها كل واحد من اجزاء النفس من كل واحد منها وذلك لحصول فضائلها اجمع فيها فحينئذ تنهض النفس فتؤدى فعلها الخاص بها على أفضل ما يكون وهو غاية قرب الانسان السعيد من الاله تقدس اسمه * قال والعدالة توسط ليس على جهة التوسط الذي فى الفضائل التى تقدم ذكرها لكن لانها في الوسط والجور في الطرفين وانما صار الجور في الطرفين لانه زيادة ونقصان وذلك ان من شأن الجور طلب الزيادة والنقصان معا أما الزيادة فمن النافع على الاطلاق وأما النقصان فمن الضار فلذلك يكون الجائر

مستعملا للزيادة والنقصان أما لنفسه فيستعمل الزيادة في النافع وأما لغيره فيستعمل النقصان منه وأما في الضار فبالضد وعلى العكس وذلك انه أما لنفسه فيستعمل النقصان واما لغيره فيستعمل الزيادة والفضائل التي قلنا انها اوساط بين الرذائل وهي غايات ونهايات وذلك ان الوسط هاهنا نهاية لها من كل جهة فهو في غاية البعد منها ولذلك متى بعد من الوسط زيادة بعد قرب من رذيلة كما قلنا فيما تقدم فقد تبين من جميع ما قدمنا ان الفضائل كلها اعتدالات وان العدالة اسم يشملها ويعمها كلها وان الشريعة لما كانت تقدر الافعال الارادية التي تقع بالروية بالوضع الالهي صار المتمسك بها في معاملاته عدلا والمخالف لها جائراً فلهذا قلنا ان العدالة تجب للمتمسك بالشريعة الا أنا قد قلنا مع ذلك انها هيئة نفسانية تصدر عنها هذه الفضيلة فتصور هذه الهيئة النفسانية فانك سترى رؤية واضحة أن صاحبها ينقاد لا محالة للشريعة طوعا ولا يضادها بنوع من أنواع التضاد وذلك انه اذا حافظ على المناسبات التي ذكرناها لانها مساواة وآثرها بعد اجالة الرأي فيها على سبيل الاختيار لها والرغبة فيها وجب عليه موافقة الشريعة وترك مخالفتها

وأقل ماتكون المساواة بين اثنين ولكنها تكون في معاملة مشتركة بينهما وهو الشيء الثالث وربما كان شيئين كما قلنا فتصير المناسبات كما بينا بين أربعة أشياء وينبغي أن يعلم ان هذه الهيئة النفسانية هي غير الفعل وغير المعرفة وغير القوة أما الفعل فلانا قد بينا انه قد يقع على غير هيئة نفسانية كمن يعمل أعمال العدالة وليس بعادل وكمن يعمل اعمال الشجاعة وليس بشجاع وأما القوة والمعرفة فلان كل واحدة منهما هى بعينها للضدين مما فان العلم بالضدين واحد وكذلك القوة على الضدين قوة واحدة وأما الهيئة القابلة لاحد الضدين فهى غير الهيئة القابلة للضد الآخر ومثال ذلك هيئة الشجاعة فانها غير هيئة الجبن وكذلك هيئة العفة غير هيئة الشره وهيئة العدالة غير هيئة الجور ثم ان العدالة والخيرية يشتركان في باب المعاملات والاخذ والاعطاء الا أن العدالة تقع في اكتساب المال على الشرائط التى قدمنا القول فيها والخيرية تقع فى انفاق المال على الشرائط التي ذكرناها أيضاً ومن شأن من يكتسب أن يأخذ فهو بالمنفعل أشبه ومن شأن المنفق أن يعطى فهو بالفاعل أشبه فلهذه العلة تكون محبة الناس للخير

أشد من محبتهم للعادل الا أن نظام العالم بالعدالة أكثر منه بالخيرية وخاصة الفضيلة هى فى فعل الخير لافي ترك الشر وخاصة محبة الناس وحمدهم في بذل المعروف لافى جمع المال فالخيّر لايكرم المال ولايجمعه لذاته بل ليصرفه فى وجوهه التي يكتسب بها المحبات والمحامد ومن خاصة الخيّر أن لايكون كثير المال لانه منفاق ولايكون أيضاً فقيراً لانه كسوب من حيث ينبغى وهو غير متكاسل عن الكسب ألبتة لانه بالمال يصل الى فضيلة الخيرية ولذلك لايضيع المال ولا يستعمل فيه التبذير ولا يشح أيضاً فلا يستعمل التقتير فكل خيّر عادل وليس كل عادل خيّراً

وفى هذا الموضع مسألة عويصة سأل عنها الحكماء أنفسهم وأجابوا عنها بجواب مقنع ويمكن أن يجاب فيها بجواب آخر هو أشد اقناعا ويجب أن نذكر الجميع وهو ان لشاك أن يشك فيقول اذا كانت العدالة فعلا اختياريا يتعاطاه العادل ويقصد به تحصيل الفضيلة لنفسه والمحمدة من الناس فيجب أن يكون الجور فعلا اختياريا يتعاطاه الجائر ويقصد به تحصيل الرذيلة لنفسه ومذمة الناس ومن القبيح الشنيع أن يظن بالانسان

العاقل أنه يقصد الاضرار بنفسه بعـد الروية وعلى سبيل الاختيار * ثم اجابوا عن ذلك وحلوا هـذا الشك بان قالوا ان من ارتكب فعلا يؤديه الى ضرر أو عذاب فانه يكون ظالما لنفسه وضاراً لها من حيث يقدر أنه ينفعها وذلك لسوء اختياره وترك مشاورة العقل فيه * ومثال ذلك الحاسد فانه ربما جنى على نفسه لا على سبيل ايثار الاضرار بها بل لانه يظن انه ينفعها فى العاجل بالخلاص من الاذى الذى يلحقه من الحسد هذا جواب القوم * وأما الجواب الآخر فهو ان الانسان لما كان ذا قوي كثيرة يسمى بمجموعها انسانا واحدا لم ينكر أن تصدر عنه افعال مختلفة بحسب تلك القوي وانما المنكر أن يكون الشيء الواحد البسيط ذو القوة الواحدة تقع منه بتلك القوة افعال مختلفة لا بحسب الآلات المختلفة ولا بقدر القابلات منه بل بتلك القوة الواحدة فقط فهذا لعمري منكر شنيع ولكن الانسان قد تبين من حاله ان له قوى كثيرة فيعمل بكل قوة عملا مخالفا للعمل بالاخرى أعنى ان صاحب الغضب اذا استشاط يختار أفعالا مخالفة لا فعاله

اذا كان ساكنا وادعا [1] وكذلك صاحب الشهوة الهائجة وصاحب النشوة الطروب فان من شأن هؤلاء ان يستخدموا العقل الشريف في تلك الاحوال ولا يستشيرونه ولذلك تجد العاقل اذا تغيرت أحواله تلك فصار من الغضب الى الرضا ومن السكر الى الافاقة تعجب من نفسه وقال ليت شعري كيف اخترت تلك الافعال القبيحة ويلحقه الندم وانما ذلك لان القوة التى تهيج به تدعوه الى ارتكاب فعل يظنه في تلك الحال صالحا له جميلا به لتتم له حركة القوة الهائجة به فاذا سكن عنها وراجع عقله رأى قبح ذلك الفعل وفساده وقوى الانسان التى تدعوه الى ضروب الشهوات ومحبة الكرامات وان كان لا يستحقها كثيرة جدا فهو بحسب قواه الكثيرة تكون أفعاله كثيرة فاذا تعود الانسان أن تكون سيرته فاضلة ولم يقدم على شيء من افعاله الا بعد مطالعة العقل الصريح وبعد مراعاة الشريعة القويمة كانت أفعاله كلها منتظمة غير مختلفة ولا خارجة عن سنن العدل أعني المساواة التى قدمنا القول فيها ولهذا السبب قلنا ان السعيد هو من اتفق له فى صباه ان يأنس بالشريعة ويستسلم لها ويتعود

(١) الوادع والوديع المطمئن اه

جميع ماتأمره به حتى اذا بلغ المبلغ الذي يمكنه به أن يعرف الاسباب والعلل طالع الحكمة فوجدها موافقة لما تقدمت عادته به فاستحكم رأيه وقويت بصيرته ونفذت عزيمته

وهاهنا مسئلة عويصة أشد من الاولى وهو ان التفضل شيء محمود جدا وليس يقع تحت العدالة لان العدالة كما ذكرنا مساواة والتفضل زيادة وقد حكمنا أن العدالة تجمع الفضائل كلها ولا مزيد عليها بل يجب ان تكون الزيادة عليها مذمومة كما ان النقصان عنها مذموم ليكون شرف الوسط الذي تقدم وصفه في سائر الاخلاق حاصلا للعدالة * فالجواب عنها أن التفضل احتياط يقع من صاحبه في العدالة ليأمن به وقوع النقص في شيء من شرائطها وليس الوسط في كلا الطرفين من الاخلاق على شريطة واحدة وذلك أن الزيادة في باب السخاء اذا لم تخرج الي باب التبذير أحسن من النقصان فيه وأشبه بالمحافظة على شرائطه فتصير كالاحتياط فيه والاخذ بالحزم فيه وأما العفة فان النقصان من الوسط فيها أحسن من الزيادة عليه وأشبه بالمحافظة على شرائطه وأبلغ في الاحتياط عليه وأخذ الحزم فيه ومع ذلك فليس يستعمل التفضل الاحيث

تستعمل العدالة واعني بذلك ان من أعطى ماله من لا يستحق شيأ منه وترك مواساة من يستحقه لا يسمى متفضلا بل مضيعا وانما يكون متفضلا اذا أعطي من يستحق كل ما يستحق ثم زاده تفضلا وهذه الزيادة ليست من الزيادة التي ذكرناها في باب السخاء لان تلك الزيادة ذهاب الى الطرف الذى يسمى تبذيرا وهو مذموم ويعرف ذلك من حده وهو بذل ما لا ينبغي كما لا ينبغي فى الوقت الذى لا ينبغى فاذاً التفضل غير خارج عن شرط العدالة بل هو احتياط فيها ولذلك قيل ان المتفضل أشرف من العادل * فقد بان أن التفضل ليس غير العدالة بل هو العدالة مع الاحتياط فيها وكأنه مبالغة لا يخرجها عن معناها لان هذه الهيئة النفسانية ليست غير تلك الهيئة بل هي هي * فأما الاطراف التي هي رذائل أعني الزيادة والنقصان التي سبق القول فيهما فهي كلها هيئات مذمومة غير الهيئات المحمودة وحدود هذه الاشياء هي اتى تحصل لك معانيها ومشاركة بعضها البعض ومباينة بعضها لبعض وأيضا فان الشريعة تأمر بالعدالة أمرا كليا وليست تنحط الى الجزئيات وأعني بذلك ان العدالة التي هى المساواة تكون مرة فى باب الكم

ومرة فى باب الكيف وفي سائر المقولات وبيان ذلك ان نسبة
الماء الى الهواء مثلا ليست تكون بالكمية بل بالكيفية ولو
كانت بالكمية لوجب أن يكونا متساويين فى المساحة ولو كانا
كذلك لتغالبا وأحال أحدهما الآخر الى ذاته وكذلك النار
والهواء ولو أحالت هذه العناصر بعضها بعضا لفني العالم في
أوحى مدة ولكن الباري تقدس اسمه عدل بين هذه بالقوة
فتقاومت فليس يغلب أحدهما الآخر بالكلية وانما يحيل
الجزء منها الجزء فى الاطراف أعنى حيث تلتقي نهاياتها وأما
كلياتها فلا تقدر على كلياتها لان قواها متساوية متعادلة على
غاية التسوية والتعادل وبهذا النوع من العدل قيل بالعدل
قامت السموات والارض ولو رجح أحدهما على الآخر بزيادة
يسير قوة لأحال الزائد الناقص وقوى عليه فبطل العالم
فسبحان القائم بالقسط لا اله الاهو * ولما كانت الشريعة تأمر
بالعدالة الكاملة لم تأمر بالتفضل الكلى بل ندبت اليه ندبا
يستعمل في الجزئيات التى لا يمكن أن تعين عليها لانها بلانهاية
وجزمت القول في العدالة الكلية لانها محصورة يمكن أن
تعين عليها وقد تبين ايضا مما قدمنا أن التفضل انما يكون فى

العدالة التي تخص الانسان في نفسه أعني تسوية المعاملة أولا فيما بينه وبين غيره ثم الاستظهار فيه والاحتياط عليه بما يكون تفضلا ولو كان حاكما بين قوم ولا نصيب له في تلك الحكومة لم يجز له التفضل ولم يسعه الا العدل المحض والتسوية الصحيحه بلا زيادة ولا نقصان وتبين أيضا ان الهيئة التي تصدر عنها الافعال العادلة متي نسبت الى صاحبها سميت فضيلة واذا نسبت الى من يعامله بها سميت عدالة واذا اعتبرت بذاتها سميت ملكة نفسانية فاستعمال المرء العاقل العدل على نفسه أول مايلزمه ويجب عليه وقد ذكرنا فيما تقدم كيف يفعل ذلك وبينا كيف يعدل قواه الكثيرة اذا هاج به بعضها وأشرنا الى اجناس هذه القوي الكثيرة وان بعضها يكون بالشهوات المختلفة وبعضها بطلب الكرامات الكثيرة وانها اذا تغالبت وتهايجت حدث في الانسان باضطرابها أنواع الشر وجذبته كل واحدة منها الى مايوافقها وهكذا سبيل كل مركب من كثرة اذا لم يكن لها رئيس واحد ينظمها ويوحدها وارسطوطاليس يشبه من كان كذلك بمن يجذب من جهات كثيرة فيتقطع بينها وينشق بحسب تلك الجهات وقواها وليس

ينظم هذه الكثرة التي ركب الانسان منها الا الرئيس الواحد الموهوب له من الفطرة أعني العقل الذي به تميز من البهائم وهو خليفة الله عز وجل عنده فان هذه القوى كلها اذا ساسها العقل انتظمت وزال عنها سوء النظام الذي يحدث من الكثرة وجميع ماذكرنا من اصلاح الاخلاق مبني عليه فاذا تم للانسان ذلك أعني أن يعدل على نفسه وأحرز هذه الفضيلة فقد لزمه أن يعدل على أصدقائه وأهله وعشيرته ثم ان يستعمله في الاباعد وسائر الحيوان واذ قد صح ذلك وظهر ظهورا حسيا فقد ظهر بظهوره ان شر الناس من جار على نفسه ثم على اصدقائه وعشيرته ثم على كافة الناس والحيوان لان العلم باحد الضدين هو العلم بالضد الآخر فخير الناس العادل وشرهم الجائر كما تبين ذلك *

وقد ادعى قوم ان نظام أمر الموجودات كلها وصلاح احوالها معلق بالمحبة وقالوا ان الانسان انما اضطر الى اقتناء هذه الفضيلة أعنى الهيئة التي تصدر عنها العدالة عند تعاطي المعاملات لمافاته شرف المحبة ولو كان المتعاملون احباء لتناصفوا ولم يقع بينهم خلاف وذلك أن الصديق يحب صديقه ويريد له ما يريد لنفسه وليس تتم الثقة والتعاضد والتوازر الا بين المتحابين واذا

تعاضدوا وجمعتهم المحبة وصلوا الى جميع المحبوبات ولم تتعذر عليهم المطالب وان كانت صعبة شديدة وحينئذ ينشئون الاراء الصائبة وتتعاون العقول على استخراج الغوامض من التدابير القويمة ويتقوون على نيل الخيرات كلها بالتعاضد وهؤلاء القوم انما نظروا الى فضيلة التأحد التى تحصل بين الكثرة ولعمرى إنها أشرف غايات أهل المدينة وذلك أنهم اذا تحابوا تواصلوا وأراد كل واحد منهم لصاحبه مثل ما يريده لنفسه فتصير القوى الكثيرة واحدة ولم يتعذر علي أحد منهم رأى صحيح ولا عمل صواب ويكون مثلهم فى جميع مايحاولونه مثل من يريد تحريك ثقل عظيم بنفسه فلا يطيق ذلك فان استعان بقوة غيره حركه ومدبر المدينة انما يقصد بجميع تدابيره ايقاع المودات بين أهلها واذا تم له هذا خاصة فقد تمت له جميع الخيرات التى تتعذر عليه وحده وعلى أفراد أهل مدينته وحينئذ يغلب اقرانه ويعمر بلدانه ويعيش هو ورعيته مغبوطين ولكن هذ التأحد المطلوب بهذه المحبة المرغوب فيها لا يتم الا بالآراء الصحيحة التى يرجي الاتفاق من العقول السليمة عليها والاعتقادات القوية التى لاتحصل الا بالديانات التى يقصد بها وجه الله

عز وجل وأصناف المحبات كثيرة وان كانت ترتقى كلها الى وجه واحد وسنقول فيها بعونة الله مايسنح فيما يتلو هذه المقالة ان شاء الله * تمت المقالة الرابعة

﴿ المقالة الخامسة ﴾

قد سبق القول في حاجة بعض الناس الى بعض وتبين أن كل واحد منهم يجد تمامه عند صاحبه وأن الضرورة داعية الى استعانة بعضهم ببعض لان الناس مطبوعون على النقصانات ومضطرون الى تماماتها ولا سبيل لافرادهم والواحد فالواحد منهم الى تحصيل تمامه بنفسه كما شرحناه فيما مضي فالحاجة صادقة والضرورة داعية الى حال تجمع وتؤلف بين اشتات الاشخاص ليصيروا بالاتفاق والائتلاف كالشخص الواحد الذى تجتمع أعضاؤه كلها على الفعل الواحد النافع له (وللمحبة أنواع) وأسبابها تكون بعدد انواعها فاحد انواعها ماينعقد سريعا ويحل سريعا والثانى ماينعقد سريعا ويحل بطيئا والثالث ماينعقد بطيئا ويحل سريعا والرابع ماينعقد بطيئا ويحل بطيئا وانما انقسمت الى هذه الانواع فقط لان مقاصد الناس في مطالبهم وسيرهم ثلاثة ويتركب بينها رابع وهي اللذة والخير والنافع

والمتركب منهما واذا كانت هذه غايات الناس في مقاصدهم فلا محالة انها أسباب لمحبة من عاون عليها وصار سببا للوصول اليها فأما المحبة التي يكون سببها اللذة فهي التي تنعقد سريعاً وتنحل سريعاً وذلك ان اللذة سريعة التغير كما شرحنا أمرها فيما تقدم وأما المحبة التي سببها الخير فهي التي تنعقد سريعاً وتنحل بطيئا وأما المحبة التي سببها النافع فهي التي تنعقد بطيئا وتنحل سريعا وأما التي تتركب من هذه اذا كان فيها الخير فانها تنحل بطيئا وتنعقد بطيئا وهذه المحبات كلها تحدث بين الناس خاصة لانها تكون بارادة وروية وتكون فيها مجازاة ومكافأة فأما التي تكون بين الحيوانات غير الناطقة فالأحرى بها أن تسمى الفا وتقع بين الاشكال منها خاصة وأما التي لانفوس لها من الاحجار وأمثالها فليس يوجد فيها الا الميل الطبيعي الى مراكزها التي تخصها وقد يوجد أيضا بينها منافرة ومشاكلة بحسب أمزجتها الحادثة فيها من عناصرها الاول وهذه الامزجة كثيرة واذا وقع منها شيء يتناسب نسبة تأليفية أو عددية أو مساحية حدث بينها ضروب من المشاكلة واذا كان أضداد هذه النسب حدثت بينها منافرة وتحدث لها اشياء تسمى

خواصا وهي أفعال بديعة وهي التي تسمى أسرار الطبائع ولا سيا في النسب التأليفية فانها أشرف النسب بعد نسبة المساواة ولها أضداد أعني هذه النسب وهي مبينة مشروحة في صناعة الارتماطيقي ثم في صناعة التأليف * وأما الامزجة التي بحسب هذه النسب فهي خفية عنا وعسرة المرام وقد ادعى قوم الوصول اليها وليست تكون هذه الافعال والخواص التي تحدث بين الامزجة من النسب المذكورة موجودة في العناصر أنفسها والكلام فيها خارج عن غرضنا وانما ذكرناها ههنا لانها تشبه المشاكلات والمنافرات التي بين الحيوان في الظاهر والنسبة التي تحدث بين الناس بالارادة وهي التي نتكلم فيها ويقع فيها مكافاة ومجازاة * والصداقة نوع من المحبة الا انها اخص منها وهي المودة بعينها وليس يمكن أن تقع بين جماعة كثيرين كما تقع المحبة * وأما العشق فهو افراط المحبة وهو أخص من المودة وذلك أنه لا يمكن أن يقع الا بين اثنين فقط ولا يقع في النافع ولا في المركب من النافع وغيره وانما يقع لمحب اللذة بافراط ولمحب الخير بافراط واحدهما مذموم والآخر محمود * فالصداقة بين

الاحداث ومن كان في مثل طباعهم انما تحدث لاجل اللذة فهم يتصادقون سريعاً ويتقاطعون سريعاً وربما اتفق ذلك بينهم في الزمان القليل مرارا كثيرة وربما بقيت بقدر ثقتهم ببقاء اللذة ومعاودتها حالا بعد حال فاذا انقطعت هذه الثقة بمعاودتها انقطعت الصداقة بالوقت وفي الحال * والصداقة من المشائخ ومن كان في مثل طباعهم انما تقع لمكان المنفعة فهم يتصادقون بسببها فاذا كانت المنافع مشتركة بينهم وهي في الاكثر طويلة المدة كانت الصداقة بينهم باقية فحين تنقطع علاقة المنفعة بينهم وينقطع رجاؤهم من المنفعة المشتركة تنقطع موداتهم * والصداقة بين الاخيار تكون لاجل الخير وسببها هو الخير ولما كان الخير شيأ ثابتاً غير متغير الذات صارت مودات أصحابه باقية غير متغيرة وأيضا لما كان الانسان مركبا من طبائع متضادة صار ميل كل واحد منها يخالف ميل الآخر فاللذة التي توافق احداها تخالف لذة الاخرى التي تضادها فلا تخلص له لذة غير مشوبة بأذى ولما كان فيه أيضا جوهر آخر بسيط الهي غير مخالط لشيء من الطبائع الاخر صارت له لذة غير مشابهة لشيء من تلك اللذات وذلك انها بسيطة أيضا

والمحبة التي سببها هذه اللذة هي التى تفرط حتى تصير عشقا تاما خالصا شبيها بالوله وهى المحبة الالهية الموصوفة التي يدعيها بعض المتألهين وهى التى يقول فيها ارسطوطاليس حكاية عن ابرقليطس ان الاشياء المختلفة لا تتشاكل ولا يكون منها تأليف جيد وأما الاشياء المتشاكلة وهى التى يسر بعضها ببعض ويشتاق بعضها الى بعض فاقول ان الجواهر البسيطة اذا تشاكلت واشتاق بعضها الى بعض تألفت واذا تألفت صارت شيأ واحدا ولا غيرية بينها اذ الغيرية انما تحدث من جهة الهيولى وأما الاشياء ذوات الهيولى وهى الاجرام فانها وان اشتاقت بنوع من الشوق الى التألف فانها لا تتحد ولا يمكن ذلك فيها وذلك انها تلتقي بنهاياتها وسطوحها دون ذواتها وهذا الالتقاء سريع الانفصال اذ كان التأحد فيه ممتنعا وانما تتأحد بنحو استطاعتها أعنى ملاقاة سطوحها * فاذا الجوهر الالهي الذى فى الانسان اذا صفا من كدورته التى حصلت فيه من ملابسة الطبيعة ولم تجذبه أنواع الشهوات واصناف محبات الكرامات اشتاق الى شبيهه ورأى بعين عقله الخير الاول المحض الذى لا تشوبه مادة فاسرع اليه وحينئذ يفيض نور

ذلك الخير الاول عليه فيلتذ به لذة لا تشبهها لذة ويصير الى معنى الاتحاد الذي وصفناه استعمل الطبيعة المدنية أم لم يستعملها الا انه بعد مفارقته الطبيعة بالكلية أحق بهذه الرتبة العالية لانه ليس يصفو الصفاء التام الا بعد مفارقته الحيوة الدنيوية ومن فضائل هذه المحبة الالهية انها لا تقبل النقصان ولا تقدح فيها النسابة ولا يعترض عليها الملك ولا تكون الا بين الاخيار فقط وأما المحبات التي تكون بسبب المنفعة واللذة فقد تكون بين الاشرار وبين الاخيار والاشرار الا انها تنقضي وتنحل مع تقضي النافع واللذيذ لانها عرضية وكثيرا ما تحدث بالاجتماعات في المواضع الغريبة الا انها تزول بزوال المواضع كالسفينة وما جرى مجراها والسبب في هذه المحبة الانس وذلك ان الانسان آنس بالطبع وليس بوحشي ولا نفور ومنه اشتق اسم الانسان في اللغة العربية وقد تبين ذلك في صناعة النحو وليس كما قال الشاعر

* سميت انسانا لانك ناس *

فان هذا الشاعر ظن ان الانسان مشتق من النسيان وهو غلط منه وينبغى أن يعلم أن هذا الانس الطبيعى في الانسان

هو الذي ينبغي أن نحرص عليه ونكتسبه مع ابناء جنسنا حتى لايفوتنا بجهدنا واستطاعتنا فانه مبدأ المحبات كلها وانما وضع للناس بالشريعة وبالعادة الجميلة اتخاذ الدعوات والاجتماع في المآدب ليحصل لهم هذا الانس ولعل الشريعة انما أوجبت على الناس أن يجتمعوا في مساجدهم كل يوم خمس مرات وفضلت صلاة الجماعة على صلاة الآحاد ليحصل لهم هذا الانس الطبيعي الذى هو فيهم بالقوة حتي يخرج الى الفعل ثم تتأكد بالاعتقادات الصحيحة التي تجمعهم وهذا الاجتماع في كل يوم ليس يتعذر على أهل كل محلة وسكة[1] والدليل على أن غرض صاحب الشريعة ماذكرناه انه أوجب على أهل المدينة باسرهم أن يجتمعوا في كل أسبوع يوما بعينه في مسجد يسعهم ليجتمع أيضا شمل أهل المحال والسكك في كل أسبوع كما اجتمع شمل أهل الدور والمنازل في كل يوم ثم أوجب أيضا أن يجتمع أهل المدينة مع أهل القرى والرساتيق المتقاربين في كل سنة مرتين في مصلى بارزين مصحرين ليسعهم المكان ويتجدد الانس بين كافتهم وتشملهم المحبة الناظمة لهم ثم أوجب بعد ذلك ان

---

(١) السكة الزقاق اه

يجتمعوا في العمر كله مرة واحدة في الموضع المقدس بمكة ولم
يعين من العمر وقتا مخصوصا ليتسع لهم الزمان وليجتمع
أهل المدن المتباعدة كما اجتمع أهل المدينة الوحدة ويصير
حالهم فى الانس والمحبة وشمول الخير والسعادة كحال المجتمعين
فى كل سنة وفي كل أسبوع وفي كل يوم فيجتمعوا بذلك
الانس الطبيعي الى الخيرات المشتركة وتتجدد بينهم محبة الشريعة
وليكبروا الله على ما هداهم ويغتبطوا بالدين القويم القيم الذى
الفهم على تقوى الله وطاعته * والقائم بحفظ هذه السنة وغيرها
من وظائف الشرع حتى لا تزول عن أوضاعها هو الامام
وصناعته هى صناعة الملك والاوائل لا يسمون بالملك الا من
حرس الدين وقام بحفظ مراتبه وأوامره وزواجره وأما من
أعرض عن ذلك فيسمونه متغلبا ولا يؤهلونه لاسم الملك
وذلك ان الدين هو وضع الهي يسوق الناس باختيارهم الي
السعادة القصوى والملك هو حارس هذا الوضع الالهى حافظ
على الناس ما أخذوا به وقد قال حكيم الفرس وملكهم
ازدشير إن الدين والملك أخوان توأمان لا يتم أحدهما الا
بالاخر فالدين أس والملك حارس وكل مالا أس له فمهدوم وكل

مالا حارس له فضائع ولذلك حكمنا على الحارس الذي نصب للدين أن يتيقظ في موضعه ويحكم صناعته ولا يباشر أمره بالهوينا ولا يشتغل بلذة تخصه ولا يطلب الكرامة والغلبة الا من وجهها فانه متى أغفل شيئا من حدوده دخل عليه من هنالك الخلل والوهن وحينئذ تتبدل أوضاع الدين ويجد الناس رخصة في شهواتهم ويكثر من يساعدهم فتنقلب هيئة السعادة الى ضدها ويحدث بينهم الاختلاف والتباغض فاداهم ذلك الى الشتات والفرقة وبطل الغرض الشريف وانتقض النظام الذي طلبه صاحب الشرع بالاوضاع الالهية فاحتيج حينئذ الى تجديد الامر واستئناف التدبير وطلب الامام الحق والملك العدل (ونعود الى ذكر اجناس المحبات وأسبابها فنقول) ان هذه الاسباب كلها ماخلا المحبة الالهية اذا كانت مشتركة بين المتحابين وواحدا بعينه جاز في الشيئين أن ينعقدا معا وينحلا معا وجاز أيضا أن يبقى أحدهما وينحل الآخر * مثال ذلك ان اللذات المشتركة بين الرجل والمرأة هي سبب للمحبة بينهما فقد يجوز أن يجتمع المحبتان لان السبب واحد وهى اللذة وقد يجوز أن تنقطع احداهما وتبقى

الاخرى وذلك ان اللذة تتغير ولا تكاد تثبت كما تقدم وصفها فقد يجوز أن يتغير سبب احدى المحبتين ويثبت الآخر وأيضا فان بين الرجل وبين زوجته خيرات مشتركة ومنافع مختلطة وهما يتعاونان عليها أعني الخيرات الخارجة عنا وهى الاسباب التي تعمر بها المنازل فالمرأة تنتظر من زوجها تلك الخيرات لانه هو الذى يكتسبها ويحضرها وأما الرجل فانه ينتظر من زوجته ضبط تلك الخيرات لانها هي التي تحفظها وتدبرها لتثمر ولا تضيع فمتي قصر أحدهما اختلفت المحبة وحدثت الشكايات ولا تزال كذلك الى أن تنقطع أو تبقى مع الشكايات والملامة * وكذلك حال المنفعة المشتركة بين الناس اذا كانت واحدة بعينها وأما المحبات المختلفة التي أسبابها مختلفة فهى أولى بسرعة التحلل ومثال ذلك أن تكون محبة أحد المتحابين لاجل المنفعة ومحبة الآخر لاجل اللذة كما يعرض ذلك للمعاشرين على أن أحدهما مغن والآخر مستمع فان المغنى منهما يحب المستمع لاجل المنفعة والمستمع منهما يحب المغنى لاجل اللذة وكما يعرض أيضا بين العاشق والمعشوق اللذين أحدهما يلتذ بالنظر والآخر ينتظر المنفعة وهذا الصنف

من المحبة يعرض فيه أبدا التشاكي والتظلم وذلك ان طالب
اللذة يتعجل مطلوبه وطالب المنفعة يتأخر عنه وليس يكاد
يعتدل الامر بينهما ولذلك ترى العاشق يشكو معشوقه ويتظلم
منه وهو بالحقيقة ظالم ينبغي أن يشتكي لانه يتعجل لذته بالنظر
ولا يرى المكافأة بما يستحق صاحبه والمحبة اللوامة كثيرة
الانواع الا ان الاصل فيها ما ذكرت ويوشك أن تكون
المحبة بين الرئيس والمرؤس والغنى والفقير تعرض لها الملامة
والتوبيخ لاجل اختلاف الاسباب ولان كل واحد ينتظر
من المكافأة عند الآخر ما لايجده عنده فيقع فساد فى
النيات بينهما ثم استبطاء ثم ملامات ويزيل ذلك طلب العدالة
ورضي كل واحد بما يستحقه من الآخر وبذل كل واحد
للآخر العدل المبسوط بينهما والمماليك خاصة لا يرضيهم من
مواليهم الا الزيادة الكثيرة فى الاستحقاق وكذلك الموالى
يستبطئون العبيد فى الخدمة والشفقة والنصيحة وفى جميع
ذلك يقع اللوم وفساد الضمير فهذه المحبة اللوامة لاتكاد تخلو
منها الا على شريطة العدل وطلب الوسط من الاستحقاق
والرضا به وهو صعب * وأما محبة الاخيار بعضهم بعضا فانها

لا تكون للذة خارجة ولا لمنفعة بل للمناسبة الجوهرية بينهما وهي قصد الخير والتماس الفضيلة فاذا أحب أحدهم الآخر لهذه المناسبة لم تكن بينهم مخالفة ولا منازعة ونصح بعضهم بعضا وتلاقوا بالعدالة والتساوى في ارادة الخير وهذا التساوي في النصيحة وارادة الخير هو الذي يوحد كثرتهم * ولهذا حد الصديق بانه آخر هو انت الا أنه غيرك بالشخص ولهذا صار عزيز الوجود ولم يوثق بصداقة الاحداث والعوام ومن ليس بحكيم لان هؤلاء يحبون ويصادقون لاجل اللذة والمنفعة ولا يعرفون الخير بالحقيقة واغراضهم غير صحيحة * وأما السلاطين فانهم يظهرون الصداقة على انهم متفضلون ومحسنون الى من يصادقهم فليس يدخلون تحت الحد الذى ذكرناه وفى صداقتهم زيادة ونقصان والمساواة عزيزة الوجود عندهم وكذلك محبة الوالد للولد والولد للوالد لان أنواع هذه المحبة مختلفة وأسبابها أيضاً مختلفة كما قلنا الا ان محبة الوالد للولد والولد للوالد وان كان بينهما اختلاف ما من وجه فان بينهما اتفاقا ذاتيا وأعنى بالذاتى ههنا ان الوالد يرى في ولده انه هو هو وانه نسخ صورته التى تخصه من الانسانية فى شخص ولده نسخا

طبيعيا ونقل ذاته الى ذاته نقلا حقيقيا وحق له أن يرى ذلك
لان التدبير الالهى بالسياقة الطبيعية التي هى سياسته عز وجل
هو الذى عاون الانسان على انشاء الولد وجعله السبب الثانى
فى ايجاده ونقل صورته الانسانية اليه ولذلك يحب الوالد لولده
جميع مايحبه لنفسه ويسعى في تأديبه وتكميله بكل مافاته في
نفسه طول عمره ولا يشق عليه أن يقال له ولدك أفضل منك
لانه يرى انه هو هو وكما ان الانسان اذا تزايد فى نفسه حالا
فحالا وترقى في الفضيلة درجة فدرجة لايشق عليه أن يقال له
انك الآن أفضل مما كنت بل يسره ذلك وكذلك تكون
حاله اذا قيل له فى ولده مثل ذلك ثم تفضل أيضا محبة الوالد
على محبة الولد بانه الفاعل له وبانه يعرفه منذ أول كونه ويستبشر
به وهو جنين ثم تزداد محبته له مع التربية والنشئ ويتأكد
سروره به وتأميله له ويحدث له اليقين بانه باق به صورة وان
فنى بجسمه مادة وهذه المعانى الجلية عند أهل العلم تتراءى
للعوام كانها من وراء ستر * وأما محبة الولد للوالد فانها تنقص
عن هذه الرتبة بان الولد مفعول وبانه لا يعرف ذاته ولا فاعل
ذاته الا بعد زمان طويل وبعد ان يستثبت أباه حسا وينتفع

به دهرا ثم يعقل بعد ذلك أمره بالصحة وعلى مقدار عقله واستبصاره في الامور يكون تعظيمه لوالديه ومحبته لهما ولهذه العلة وصى الله عز وجل الولد بوالده ولم يوص الوالد بولده * وأما محبة الاخوة بعضهم لبعض فلأن سبب كونهم ونشئهم واحد بعينه * ويجب أن تكون نسبة الملك الى رعيته نسبة أبوية ونسبة رعيته اليه نسبة بنوية * ونسبة الرعية بعضهم الى بعض نسبة اخوية حتى تكون السياسات محفوظة على شرائطها الصحيحة وذلك ان مراعاة الملك لرعيته هى مراعاة الأب لاولاده ومعاملته اياهم تلك المعاملة * وقد كنا أشرنا الى ذلك وسنزيده بيانا اذا صرنا الى ذكر سياسة الملك في موضع آخر وعنايته برعيته يجب أن تكون مثل عناية الاب باولاده شفقة وتحننا وتعهدا وتعطفا خلافة لصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم بل لمشرع الشريعة تعالى ذكره في الرأفة والرحمة وطلب المصالح لهم ودفع المكاره عنهم وحفظ النظام فيهم * وبالجملة فى كل ما يجلب الخير ويمنع الشر فانه عند ذلك تحبه رعيته محبة الاولاد للاب الشفيق وتحدث بينهما تلك النسبة وانما تختلف هذه المحبات بالتفاضل الذى يكون بعظم المنافع فيجب أن يكرم

الاب كرامة أبويه ويكرم السلطان كرامة سلطانية ويكرم
الناس بعضهم بعضا كرامة أخوية ولكل مرتبة من هذه
استئهال خاص بها واستحقاق واجب لها فاذالم يحفظ بالعدالة
زاد ونقص وعرض لها الفساد وانتقلت الرياسات وانعكست
الامور فيعرض لرياسة الملك أن تنتقل الى رياسة التغلب ويتبع
ذلك أن تنتقل محبة الرعية الى البغض له ويعرض لرياسات
من دونه مثل ذلك فتصير محبة الاخيار الى تباغض الاشرار
وتعود الالفة نفارا والتودد نفاقا ويطلب كل أحد لنفسه مايظنه
خيرا له وان اضر بغيره وتبطل الصداقات والخير المشترك
بين الناس ويؤول الامر الى الهرج الذي هو ضد
النظام الذي رتبه الله لخلقه ورسمه بالشريعة وأوجبه بالحكمة
البالغة * وأما المحبة التي لاتشوبها الانفعالات ولاتطرأ عليها
الافات وهي محبة العبد لخالقه عزوجل فانها انما تخلص للعالم
الرباني وحده خاصة ولاسبيل لغيره اليها الا بالدعوى الكاذبة
وكيف يجد الانسان السبيل الى محبة من لايعرفه ولايعرف
ضروب انعامه الدارة عليه ووجوه احسانه المتصلة به في بدنه
ونفسه اللهم الا أن يصور في نفسه صنما ويظنه الخالق عز

وجل فيحبه ويعبده فان أ كثر الناس كما قال الله تعالى ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون﴾ ولعمري ان العامة تدعى المعرفة والمحبة وهم يتصورون شخصا وشبحا فتكون عبادتهم له دون الله — وهذا هو الضلال البعيد ومدعوا هذه المحبة كثيرون جدا والمحقون منهم قليلون جدا بل هم أقل القليل وهذه المحبة لامحالة تتصل بها الطاعة والتعظيم ويتلوها ويقرب منها محبة الوالدين واكرامهما وطاعتهما وليس يرتقى الى مرتبتهما شيء من المحبات الأخر الا محبة الحكماء عند تلامذتهم فانها متوسطة بين المحبة الاولى والمحبة الثانية وذلك ان المحبة الاولى لا يبلغها شيء من المحبات كما أن أسبابها لا يبلغها شيء من الاسباب والنعم التى تأتي من قبلها لا يشبهها شيء من النعم وأما المحبة الثانية فهي تتلوها لان سببها هو السبب الثانى فى وجودنا الحسى أعني أبداننا وكوننا وأما محبة الحكماء فهي أشرف وأ كرم من محبة الوالدين لاجل أن تربيتهم هى لنفوسنا وهم الاسباب في وجودنا الحقيقى وبهم وصلنا الى السعادة التامة التى ننالها بها اللقاء الابدى والنعيم السرمدى في جوار رب العالمين فبحسب فضل انعامهم علينا وبقدر فضل

النفوس على الابدان تجب حقوقهم وتلزم طاعتهم ومحبتهم وليس يبلغ أحد جزاء ولا مكافأة الاول ولا مايستأهله الثانى أعني الوالدين وان هو اجتهد وبالغ ولا يؤدي حقوقهما أبدا وان خدم باقصي طاقته وغايةوسعه * وأمامحبةطالب الحكمة للحكيم والتلميذ الصالح للمعلم الخير فانها من جنس المحبة الأولى وفي طريقها وذلك لاجل الخير المظيم الذي يشرف عليه ويصل اليه وللرجاء الكريم الذى لايتحقق الابعنايته ولا يتم الا بمطالعته ولانه والد روحاني ورب بشري واحسانه احسان الهي وذلك انه يربيه بالفضيلة التامة ويغذوه بالحكمة البالغة ويسوقه الى الحياة الابدية فى النعيم السرمدى واذا كان هو السبب فى كل وجودنا العقلي وهو المربى لنفوسنا الروحانية فبحسب فضل النفس على البدن يجب أن يفضل المنعم بهذا على المنعم بذاك وبقدر فضلها على البدن يكون فضل التربية على التربية فيحق أن يحب التلميذ معلم الحكمة محبة خالصة شبيهة بالمحبة الاولى ولذلك قلنا ان هذه المحبة من جنس تلك المحبة الاولى والطاعة له من جنس تلك الطاعة وكذلك تعظيمه له واجلاله اياه ثم لما كان سبب هاتين النعمتين ومعرضنا لهما

وسائقنا اليهما وإلى جميع النعم هو السبب الاول الذى هو سبب الخيرات كلها قربت منا أو بعدت عنا عرفناها أولم نعرفها وجب أن تكون محبتنا له فى أعلى مراتب المحبات وكذلك طاعتناله وتمجيدنا اياه ويجب على من بلغ هذه المنزلة من الاخلاق أن يعرف مراتب المحبات ومايستحقه كل واحد من صاحبه حتى لا يبذل كرامة الوالد للرئيس الاجنبي ولا كرامة الصديق للسلطان ولا كرامة الولد للعشير ولا كرامة الاب للابن فان لكل واحد من هؤلاء وأشباههم صنفا من الكرامة وحقا من الجزاء ليس للاخر ومتى خلط فيه اضطرب وفسد وحدثت الملامات واذا وفى كل واحد منهم حقه وقسطه من المحبة والخدمة والنصيحة كان عادلا وأوجبت له محبته وعدالته فيها محبته على صاحبه ومعامله وكذلك يجب أن يجرى الامر في مؤانسة الاصحاب والخلطاء والمعاشرين من توفية حقوقهم واعطائهم ماهو خاص بهم ؛ ومن غش المحبة والصداقة كان أسوأ حالا ممن غش الدرهم والدينار فان الحكيم ذكر أن المحبة المغشوشة تنحل سريعا وتفسد وشيكا كما أن الدرهم والدينار اذا كانا مغشوشين فسدا سريعا وهذا واجب في جميع

أنواع المحبات ولذلك يتعاطي العاقل أبدا نمطا واحـدا ويلزم مذهبا واحـدا فى ازادة الخير ويفعل جميع ما يفعله من أجل ذاته ويرى خيره عند غيره كما يراه عنـد نفسه وأما صديقه فقد قلنا إنه هو هو الا أنه غيره بالشخص أما سائر مخالطيه ومعارفه فانه يسلك بهم مسلك أصدقائه كانه مجتهد فى أن يبلغ بهم وفيهم منازل الاصدقاء بالحقيقة وان كان لايمكن ذلك فى جميعهم فهذه سيرة الرجل الخير فى نفسه وفي رؤسائه وأهله وعشيرته وأصدقائه وسلطانه * وأما الشرير فانه يهرب من هذه السيرة وينفر منها لرداءة الهيئة التى حصلت له ولمحبة البطالة والتكاسل عن معرفة الخير والتمييز بينه وبين الشر وبين ماهو مظنون عنده خيرا وليس بخير ومن كان على هذه الحالة من الشرور ورداءة الهيئة كانت أفعاله كلها رديئة وذاته رديئة ومن كانت ذاته رديئة هرب من ذاته لاجل ان الرداءة مهروب منها واضطر الى صحبة قوم يناسبونه ليفنى عمره معهم ويشتغل بهم عن ذاته ومايجده فيها من الاضطراب والقلق وذلك ان هؤلاء الاشرار اذا خلوا بانفسهم تذكروا افعالهم الرديئة وهاجت بهم القوى المتضادة التى تدعوهم الى ارتكاب الشرور المتضادة فيألمون من ذواتهم

وتتشاغب نفوسهم أنواع الشغب وتجذبهم القوى التي فيهم وهي
التي لم يروضوها بالادب الحقيقي الى جهات مختلفة من اللذات
الرديئة وطلب الكرامات التي لا يستحقونها والشهوات الرديئة
التي تهلكهم سريعا فاذا جذبتهم هذه القوى الى جهات مختلفة
أحدثت فيهم آلاما كثيرة لانه ليس يمكن أن يفرح ويحزن
معا ولا يرضى ويسخط في حال واحدة ولا يستطيع أن يؤلف
بين الاضداد حتى تجتمع له فهو من شقائه يهرب من ذاته
لانها رديئة فاسدة متألمة كثيرة الشغب عليه ويلتمس لعشرته
ومخالطته من هو مثله أو أسوأ حالا منه فيجد للوقت راحة
به وسكونا اليه لاجل المشاكلة ثم يعود بعد قليل وبالا عليه
وزيادة في خباله وفساده فيألم به ويهرب منه فليس له محب
ولا ذاته ولا له نصيح ولا نفسه وليس يتحصل الا على الندامة
ولا يرجع الا الى الشقوة * وأما الرجل الخير الفاضل فان
سيرته جيدة محبوبة فهو يحب ذاته وافعاله ويسر بنفسه
ويسر به أيضا غيره ويختار كل انسان مواصلته ومصادقته
فهو صديق نفسه والناس اصدقاؤه وليس يضاده الا الشرير
فقط ويعرض لمن هذه سيرته أن يحسن الى غيره بقصد وبغير

قصد وذلك أن أفعاله لذيذة محبوبة واللذيذ المحبوب مختار فيكثر المقبلون عليه والمحتفون به والآخذون عنه وهذا هو الاحسان الذاتي الذي يبقى ولا ينقطع ويتزايد على الايام ولا ينتقص وأما الاحسان العرضي الذي ليس بخلق ولا هو سيرة لصاحبه فانه ينقطع ويلحق فيه اللوم والمحبة التي تعرض منه تلحق بالمحبات اللوامة ولذلك يوصي صاحبه بتربيته فيقال له تربية الصنعة أصعب من ابتدائها والمحبة التي تحدث بين المحسن والمحسن اليه يكون فيها زيادة ونقصان أعني أن محبة المحسن للمحسن اليه أشد من محبة المحسن اليه للمحسن واستدل ارسطوطاليس على ذلك بان المقرض وصانع المعروف يهتم كل واحد منهما بمن أقرضه واصطنع المعروف عنده ويتعاهدانهما ويحبان سلامتهما أما المقرض فربما أحب سلامة المقرض لمكان الأخذ لا لمكان المحبة أعني أنه يدعو له بالسلامة والبقاء وسبوغ النعمة ليصل الى حقه وأما المقرض فليس يعنى كبير عناية بالمقرض ولا يدعو له بهذه الدعوات وأما مصطنع المعروف فانه بالحق الواجب يود الذي اصطنع اليه معروفه وان لم ينتظر منه منفعة وذلك أن كل صانع فعل جيد محمود يحب مصنوعه

فاذا كان مصنوعه مستقيما جيدا وجب أن يكون محبوبا في الغاية قد تبين أن محبة المحسن أشد من محبة المحسن اليه وأما المحسن اليه فشهوته للاحسان أشد وأزيد من شهوة المحسن وأيضا فان المحبة المكتسبة بالاحسان المرباة على طول الزمان تجري مجرى القنيات التي يتعب بتحصيلها فان ما يكتسب منها على سبيل التعب والنصب تكون المحبة له أشد والضن به أكثر ومن وصل الى المال بغير تعب لم يكترث به ولم يشح عليه وبذله في غير موضعه كما يفعل الوراث ومن يجري مجراهم وأما من وصل اليه بتعب وسافر في طلبه وشقي بجمعه فانه لامحالة يكون شديد الضن به والمحبة له ولهذه العلة صارت الأم أكثر محبة للولد من الاب ويعرض لها من الحنين والوله أضعاف مايعرض للاب وبهذا النوع من المحبة يحب الشاعر شعره ويعجب به أكثر من اعجاب غيره وكل فاعل فعل يتعب به فهو يحب فعله وأيضا فان المنفعل لايتعب كتعب الفاعل والآخذ منفعل والمعطي فاعل فمن هذه الوجوه يتبين أن مصطنع المعروف يحب من أحسن اليه حبا شديدا ومن الناس من يصطنع المعروف لاجل الخير نفسه ومنهم من يصطنعه

لاجل الذكر الجميل ومنهم من يصطنعه رياء فقط ومن البين أن أعلاهم مرتبة من صنعه لذاته أعني لذات الخير وصاحب هذه الرتبة لا يعدم الذكر الجميل والثناء الباقي ومحبة من لم يصطنع المعروف عنده وان لم يقصد ذلك بالفعل ولا بالنية ولما حكمنا فيما تقدم حكما مقبولا لا يرده أحد وهو ان كل انسان يحب نفسه وكانت هذه المحبة لا محالة تنقسم بالاقسام الثلاثة التي ذكرناها أعني اللذة والنافع والخير وجب من ذلك أن يكون من لا يميز بين هذه الاقسام حتى يعرف الافضل فالافضل منها لا يدري كيف يحسن الى نفسه التي هي محبوبته فيقع في ضروب من الخطأ لجهله بالخير الحقيقي ولذلك صار بعض الناس يختار لنفسه سيرة اللذة وبعضهم سيرة الكرامة والنافع لانهم لا يعرفون ماهو أفضل منها واما من عرف سيرة الخير وعلو مرتبته فهو لا محالة يختار لنفسه أفضل السير وأكرم الخيرات فلا يؤثر اللذة البهيمية ولا اللذات الخارجة عن نفسه فانها عرضية كلها ومستحيلة ومنحلة لكنه يختار لها أتم الخيرات وأعلاها وأعظمها وهو الخير الذي لها بالذات أعني الذي ليس بخارج عنها وهو الذي ينسب الى جزئه الالهي ومن سار بهذه السيرة واختارها

لنفسه فقد أحسن اليها وأنزلها في الشرف الاعلى وأهلها لقبول الفيض الالهي واللذة الحقيقية التي لاتفارقه أبدا واذا كان بهذه الحال فهو لامحالة يفعل سائر الخيرات الاخر وينفع غيره ببذل الاموال والسماحة بجميع مايتشاح الناس عليه ويخص اصدقاءه من ذلك بكل مايضيق عنه ذرع أصحاب السير الباقية فيصير معظما عند كل أحد ولاسيما عند صديقه * وأيضا فقد بينا فيما تقدم ان الانسان مدنى بالطبع وشرحنا معنى المدني فاذاً بالواجب يكون تمام سعادته الانسانية عند أصدقائه ومن كان تمامه عند غيره فمن المحال أن يصل مع الوحدة والتفرد الى سعادته التامة فالسعيد اذاً من اكتسب الاصدقاء واجتهد في بذل الخيرات لهم ليكتسب بهم مالا يقدر أن يكتسبه بذاته فيلتذ بهم أيام حياته ويلتذون أيضا به وقد شرحنا حال هذه اللذة وأنها باقية الهية غير منحلة ولامتغيرة وهؤلاء في جملة الناس والجمهور منهم قليلون جدا وأما أصحاب اللذات البهيمية والنافع فيها فكثيرون جدا وقد يكتفى من هؤلاء بالقليل كالابازير فى الطعام وكالملح خاصة وأما الصديق الاول الذى ذكرنا وصفه فلا يمكن أن يكون كثيرا لعزته ولانه محبوب

بافراط وإفراط المحبة لايصبح ولا يتم الا لواحد وأما حسن العشرة وكرم اللقاء والسعي لكل أحد بسيرة الصديق الحقيقي فبذول لاجل طلب الفضيلة ولانا قد قلنا فيما تقدم أن الرجل الخير الفاضل يسلك في عشرة معارفه مسلك الصديق وان لم تتم الصداقة الحقيقية فيهم * وأرسطوطاليس يقول ان الانسان محتاج الى الصديق عند حسن الحال وعند سوء الحال فعند سوء الحال يحتاج الى معونة الاصدقاء وعند حسن الحال يحتاج الى المؤانسة والي من يحسن اليه ولعمري ان الملك العظيم يحتاج الى من يصطنعه ويضع احسانه عنده كما ان الفقير من الناس يحتاج الى صديق يصطنعه ويضع عنده المعروف قال ومن أجل فضيلة الصداقة يشارك الناس بعضهم بعضا ويتعاشرون عشرة جميلة ويجتمعون في الرياضات والصيد والدعوات * وأما سقراطيس فانه قال بهذه الالفاظ إني لأكثر التعجب ممن يعلم أولاده أخبار الملوك ووقائع بعضهم ببعض وذكر الحروب والضغائن ومن انتقم أو وثب على صاحبه ولا يخطر ببالهم أمر المودة وأحاديث الالفة وما يحصل من الخيرات العامة لجميع الناس بالمحبة والانس وانه

لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة وان مالت اليه الدنيا بجميع رغائبها فان ظن أحد أن أمر المودة صغير فالصغير من ظن ذلك وان قدّر أنه موجود بيسير الخطب يدرك بالهوينا فما أصعبه وما أعسر وجود صداقة يوثق بها عند البلوي * ثم قال لكني أعتقد وأقول ان قدر المودة وخطرها عندي أعظم من جميع ذهب كنوز قارون ومن ذخائر الملوك ومن جميع ما يتنافس فيه أهل الارض من الجواهر وما تحويه الدنيا برا وبحرا وما يتقلبون فيه من سائر الامتعة والاثاث ولا يعدل جميع ذلك ما اخترته لنفسي من فضيلة المودة وذلك ان جميع ما أحصيته لا ينفع صاحبه اذا حلت به لوعة مصيبة فى صديقه وفهم من الصديق هنا انه آخر هو أنت سواء كان أخا من نسب أو غريبا أو ولدا أو والدا ولا يقوم له جميع ما فى الارض مقام صديق يثق به فى مهم يساعده عليه وسعادة عاجلة أو آجلة تتم له فطوبي لمن أوتى هذه النعمة العظيمة وهو خلو من السلطان وأعظم طوبى لمن أوتيه فى سلطان وذلك أن من باشر أمور الرعية وأراد أن يعرف أحوالهم وينظر فى أمورهم حق النظر لن يكفيه أذنان ولا

عينان ولا قلب واحد فان وجد اخوانا ذوى ثقة وجد بهم عيونا وآذانا وقلوبا كأنها بأجمها له فقربت عليه أطرافه واطلع من أدنى أمره على أقصاه ورأى الغائب بصورة الشاهد فأني توجد هذه الفضيلة الا عند الصديق وكيف يطمع فيها عند غير الرفيق الشفيق واذ قد عرفنا هـذه النعمة الجليلة الخطيرة فيجب علينا أن ننظر كيف نقتنيها ومن أين نطلبها واذا حصلت لنا كيف نحتفظ بها لئلا يصيبنا فيها ما أصاب الرجل الذى ضرب به المثل حين طلب شاة سمينة فوجدها وارمة فاغتر بها وظن الورم سمنا فأخذه الشاعر فقال

أعدها نظرات منك صادقة * ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

لاسيما وقد علمنا ان الانسان من بين الحيوان يتصنع حتى يظهر للناس منه مالا حقيقة له فيبذل ماله وهو بخيل ليقال هو جواد ويقدم في بعض المواطن على بعض المخاوف ليقال هو شجاع وأما سائر الحيوان فان اخلاقها ظاهرة للناس من أول الامر لا يتصنع فيها وكذلك يكون حال من لا يعرف الحشائش والنبات فانها تشتبه في عينه حتى ربما تناول منها شيئا وهو يظنه حلوا فاذا طعمه وجده مرا وربما ظنه غذاء فيكون سما فينبغي لنا أن نحـذر

ركوب الخطر في تحصيل هـذه النعمة الجليلة حتى لا نقع في
مودة المموهين الخداعين الذين يتصورون لنا بصورة الفضلاء
الاخيار فاذا حصلونا في شباكهم افترسونا كما تفترس السباع
أكيلتها والطريق الى السلامة من هذا الخطر بحسب ما أخذناه
عن أسقراطيس اذا أردنا أن نستفيد صديقا أن نسأل عنه
كيف كان في صباه مع والديه ومع اخوته وعشيرته فان كان
صالحا معهم فارج الصلاح منه والا فابعد منه واياك واياه قال
ثم اعرف بعد ذلك سيرته مع اصدقائه قبلك فاضفها الى
سيرته مع اخوته وآبائه ثم تتبع أمره في شكر من يجب عليه
شكره أو كفره النعمة ولست أعني بالشكر المكافأة التى ربما
عجز عنها بالفعل ولكن ربما عطل نيته في الشكر فلا يكافيء بما
يستطيع وبما يقدر عليه ويغتنم الجميل الذى يسدي اليه ويراه
حقا له أو يتكاسل عن شكره باللسان وليس أحد يتعذر عليه
نشر النعمة التى تتولاه والثناء على صاحبها والاعتداد له بها
وليس شيء أشد احتياجا للنقم من الكفر وحسبك ما أعده الله
لكافر نعمته من النقم مع تعاليه عن الاستضرار بالكفر ولا
شيء أجلب للنعمة ولا أشد تثبيتا لها من الشكر وحسبك

ماوعد الله به الشاكرين مع استغنائه عن الشكر فتعرف هذا الخلق ممن تريد مؤاخاته واحذران تبتلى بالكافر النعم المستحقر لايادي الاخوان واحسان السلطان ثم انظر الى ميله الى الراحات وتباطئه عن الحركة التي فيها أدنى نصب فان هذا خلق رديء ويتبعه الميل الى اللذات فيكون سببا للتقاعد عما يجب عليه من الحقوق ثم انظر نظرا شافيا فى محبته للذهب والفضة واستهانته بجمعهما وحرصه عليهما فان كثيرا من المتعاشرين يتظاهرون بالمحبة ويتهادون ويتناصحون فاذا وقعت بينهم معاملة في هذين الحجرين هر بعضهم على بعض هرير الكلاب وخرجوا الى ضروب العداوة ثم انظر فى محبته للرئاسة والتفريط فان من احب الغلبة والترأس وان يفرط لاينصفك فى المودة ولا يرضي منك بمثل مايعطيك ويحمله الخيلاء والتيه على الاستهانة باصدقائه وطلب الترفع عليهم وليس تتم مع ذلك مودة ولا غبطة ولا بد من أن تؤول الحال بينهم الى العداوة والاحقاد والاضغان الكثيرة ثم انظر هل هو ممن يستهزئ بالغناء واللحون وضروب اللهو واللعب وسماع المجون والمضاحيك فان كان كذلك فما أشغله عن مساعدات اخوانه ومواساتهم

وما أشد هربه عن مكافأة باحسان واحتمال النصب ودخول تحت جميل فيه مشقة فان وجدته بريئا من هذه الخلال فلتحتفظ عليه ولترغب فيه ولتكتف بواحد ان وجد فان الكمال عزيز وأيضا فان من كثر أصدقاؤه لم يف بحقوقهم واضطر الى الاغضاء عن بعض ما يجب عليه والتقصير في بعضه وربما ترادفت عليه أحوال متضادة أعني أن تدعوه مساعدة صديق الى أن يسر بسروره ومساعدة آخر أن يغتم بغمه وان يسعى بسعي واحد ويقعد بقعود آخر مع أحوال تشبه هذه كثيرة مختلفة ولا ينبغي أن يحملك ما حضضتك عليه من طلب الفضائل ممن تصادقه على تتبع صغار عيوبه فتصير بذلك الى أن لا يسلم لك أحد فتبقى خلوا من الصديق بل يجب أن تغضي عن المعايب اليسيرة التي لا يسلم من مثلها البشر وتنظر ما تجده في نفسك من عيب فتحتمل مثله من غيرك واحذر عداوة من صادقته أو خالته أو خالطته مخالطة الصديق واسمع قول الشاعر

عدوك من صديقك مستفاد

فلا تستكثرن من الصحاب

فان الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب

ولذلك يجب عليك متى حصل لك صديق أن تكثر مراعاته وتبالغ في تفقده ولا تستهين باليسير من حقه عندمهم يعرض له أو حادث يحدث به فأما في اوقات الرخاء فينبغي أن تلقاه بالوجه الطلق والخلق الرحب وان تظهر له في عينك وحركاتك وفي هشاشتك وارتياحك عند مشاهدته اياك مايزداد به في كل يوم وكل حال ثقة بمودتك وسكونا الى غيبك ويرى السرور في جميع أعضائك التي يظهر السرور فيها اذا لقيك فان التحفي [1] الشديد عند طلعة الصديق لا يخفي وسرور الشكل بالشكل أمر غير مشكل ثم ينبغي أن تفعل مثل ذلك بمن تعلم انه يؤثره ويحبه من صديق أو ولد أو تابع أو حاشية وتثنى عليهم من غير اسراف يخرج بك الى الملق [2] الذي يمقتك عليه ويظهر له منك تكلف فيه وانما يتم لك ذلك اذا توخيت الصدق في كل ما تثنى به عليه والزم هذه الطريقة حتى لا يقع منك توان فيها بوجه من الوجود وفي حال من الاحوال فان ذلك يجلب المحبة الخالصة ويكسب الثقة التامة ويفيدك

(١) التحفي المبالغة في اكرام الصديق وملاطفته اهـ م

(٢) الملق بالتحريك الود والاطف الشديدان اهـ

محبة الغرباء ومن لا معرفة لك به وكما ان الحمام اذا ألف بيوتنا وأنس لمجالسنا وطاف بها يجلب لنا أشكاله وأمثاله فكذلك حال الانسان اذا عرفنا واختلط بنا اختلاط الراغب فينا الآنس بنا بل يزيد على الحيوان الغير الناطق بحسن الوصف وجميل الثناء ونشر المحاسن واعلم ان مشاركة الصديق في السراء اذا كنت فيها وان كانت واجبة عليك حتى لا تستأثرها ولا تختص بشيء منها فان مشاركته في الضراء أوجب وموقعها عنده أعظم وانظر عند ذلك ان أصابته نكبة أو لحقته مصيبة أو عثر به الدهر كيف تكون مواساتك له بنفسك وما لك وكيف يظهر له تفقدك ومراعاتك ولا تنتظر به أن يسألك تصريحا أو تعريضا بل اطلع على قلبه واسبق الى ما في نفسه وشاركه في مضض [1] ما لحقه ليخف عنه وان بلغت مرتبة من السلطان والغنى فاغمس اخوانك فيها من غير امتنان ولا تطاول وان رأيت من بعضهم نبوا عنك أو نقصانا مما عهدته فداخله زيادة مداخلة واختلط به واجتذب به اليك فانك ان أنفت من ذلك أو تداخلك شيء من الكبر والصلف عليهم انتقض حبل

(١) المضض وجع المصيبة اهـ م

المودة وانتكثت قوته ومع ذلك فلست تأمن أن يزولوا عنك فتستحي منهم وتضطر الى قطيعتهم حتى لا تنظر اليهم ثم حافظ على هذه الشروط بالمداومة عليها لتبقى المودة على حال واحدة وليس هذا الشرط خاصا بالمودة بل هو مطرد في كل ما يخصك أعني أن مركوبك وملبوسك ومنزلك متي لم تراعها مراعاة متصلة فسدت وانتقضت فاذن كانت صورة حائطك وسطوحك كذلك ومتى غفلت أو توانيت لم تأمن تقوضه وتهدمه فكيف تري أن تجفو من ترجوه لكل خير وتنتظر مشاركته فى السراء والضراء ومع ذلك فان ضرر تلك يختص بك بمنفعة واحدة وأما صديقك فوجوه الضرر التى تدخل عليك بجفائه وانتقاض مودته كثيرة عظيمة وذلك انه ينقلب عدوا وتتحول منافعه مضار فلا تأمن غوائله وعدوانه مع عدمك الرغائب والمنافع به وينقطع رجاؤك فيما لا تجد له خلفا ولا تستفيد عنه عوضا ولا يسد مسده شيء واذا راعيت شروطه وحافظت عليها بالمداومة أمنت جميع ذلك ثم احذر المراء معه خاصة وان كان واجبا ان تحذره مع كل أحد فان مماراة الصديق تقتلع المودة من أصلها لانها سبب الاختلاف والاختلاف سبب التباين

الذى هربنا منه الى ضده وتبعنا أثره واخترنا عليه الالفة التى طلبناها وأثنينا عليها وقلنا ان الله عز وجل دعا اليها بالشريعة القويمة وانى لاعرف من يؤثر المراء ويزعم أنه يقدح خاطره ويشحذ ذهنه ويثير شكوكه فهو يتعمد فى المحافل التى تجمع رؤساء أهل النظر ومتعاطى العلوم مماراة صديقه ويخرج فى كلامه معه الى ألفاظ الجهال من العامة وسقاطهم ليزيد فى خجل صديقه وليظهر انقطاعه وتبلجه وليس يفعل ذلك عند خلوته به ومذاكرته له وانما يفعله حيث يظن به أنه أدق نظرا أو أحضر حجة وأغزر علما وأحد قريحة فما كنت أشبهه الا بأهل البغى وجبابرة أصحاب الاموال والمتشبهين بهم من أهل البدع فان هؤلاء يستحقر بعضهم بعضا ولا يزال يصغر بصاحبه ويزرى على مروءته ويتطلب عيوبه ويتتبع عثراته ويبالغ كل واحد فيما يقدر عليه من اساءة صاحبه حتى يؤدى بهم الحال الى العداوة التامة التى يكون معها السعاية وازالة النعم وتجاوز ذلك الى سفك الدم وأنواع الشرور فكيف يثبت مع المراء محبة أو يرجى به الفة ثم احذر في صديقك ان كنت متحققا بعلم أو متحليا بأدب أن تبخل عليه بذلك الفن أو يرى فيك

أنك تحب الاستبداد دونه والاستئثار عليه فان أهل العلم لايري بعضهم في بعض مايراه أهل الدنيا بينهم وذلك أن متاع الدنيا قليل فاذا تزاحم عليه قوم ثم بعضهم حال بعض ونقص حظ كل واحد من حظ الآخر فأما العلم فانه بالضد وليس أحد ينقص منه مايأخذه غيره منه بل يزكو على التفقه ويربو مع الصدقة ويزيد على الانفاق وكثرة المخرج فاذا بخل صاحب علم بعلمه فانما ذلك لاحوال فيه كلها قبيحة وهى انه إما أن يكون قليل البضاعة منه فهو يخاف أن يفنى ما عنده أو يرد عليه مالا يعرفه فيزول تشرفه عند الجهال وإما أن يكون مكتسبا به فهو يخشى أن يضيق مكسبه به وينقص حظه منه وإما أن يكون حسودا والحسود بعيد من كل فضيلة لا يوده أحد وانى لأعرف من لا يرضي بأن يبخل بعلم نفسه حتى يبخل بعلم غيره ويكثر عتبه وسخطه على من يفيد غيره من التلامذة المستحقين لفائدة العلم وأكثر ما يتوصل الى أخذ الكتب من أصحابها ثم يمنعهم منها وهذا خلق لاتبقى معه مودة بل يجلب الي صاحبه عداوات لايحسبها ويحسم اطماع أصدقائه من صداقته ثم احذر أن تنبسط أصحابك

ومن يخلو بك من أتباعك أو تحمل أحـدا منهم على ذكر شيء في نفسه ولا ترخص في عيب شيء يتصل به فضلا عن عيبه ولا يطمعن أحد في ذلك من أولى أسبابك والمتصلين بك جدا ولا هزلا وكيف تحتمل ذلك فيه وأنت عينه وقلبه وخليفته على الناس كلهم بل أنت هو فانه ان بلغه شيء مما حذرتك منه لم يشك أن ذلك كان عن رأيك وهواك فينقلب عدوا وينفر عنك نفور الضد فان عرفت منه أنت عيبا فوافقه عليه موافقة لطيفة ليس فيها غلظة فان الطبيب الرفيق ربما بلغ بالدواء اللطيف مايبلغه غيره بالشق والقطع والكي بل ربما توصل بالغذاء الى الشفاء واكتفى به عن المعالجة بالدواء ولست أحب أن تغضى عما تعرفه في صديقك وأن تترك موافقته عليه بهذا الضرب من الموافقة فان ذلك خيانة منك ومسامحة فيما يعود ضرره عليـه وليس من حق الصديق أن يعرف ويبذل لعيون الاضداد حتى يعيبوه ويثلبوه ثم احذر النميمة وسماعها وذلك أن الاشرار يدخلون بـين الاخيار في صورة النصحاء فيوهمونهم النصيحة وينقلون اليهم في عرض الاحاديث اللذيذة أخبار أصدقائهم محرفة مموهة حتي اذا تجاسروا عليهم

بالحديث المختلق يصرحون لهم بما يفسد موداتهم ويشوه وجوه
أصدقائهم الى أن يبغض بعضهم بعضا وللقدماء فى هذا المعني
كتب مؤلفة يحذرون فيها من النميمة ويشبهون صورة النمام
بمن يحك بأظافيره أصول البنيان القوية حتى يؤثر فيها ثم
لا يزال يزيد ويمعن حتى يدخل فيها المعول فيقلعه من أصله
ويضربون له الامثال الكثيرة المشبهة بحديث الثور مع الاسد
فى كتاب كليله ودمنه ونحن نكتفي بهذا القدر من الايماء لئلا
نخرج عن رسم كتابنا وعما بنينا عليه مذهبنا من الايجاز مع
الشرح ولست أترك مع الايجاز والاختصار تعظيم هذا الباب
وتكريره عليك لتعلم أن القدماء انما ألفوا فيه الكتب وضربوا
له الامثال وأكثروا فيه من الوصايا لما رأوه من النفع العظيم
عند السامعين من الاخيار ولما خافوه من الضرر الكثير على
من يستهين به من الاغمار وليعلم أن المثل المضروب في السباع
القوية اذا دخل عليها الثعلب الرواغ على ضعفه فأهلكها ودمرها
وفي الملوك الحصفاء يدخل بينهم أهل النميمة فى صورة الناصحين
حتي يفسدوا نيتهم على وزرائهم المبالغين في نصيحتهم المجتهدين
في تثبيت ملكهم الي أن يغضبوا عليهم ويصرفوا به عيونهم

عنهم ويصيروا من محبتهم وايثارهم على آبائهم وأولادهم الى أن
لا يملؤا عيونهم منهم والى أن يبطشوا بهم قتلا وتعذيبا وهم غير
مذنبين ولا مجترمين ولا مستحقين الا الكرامة والاحسان
واذا بلغ بهم من الافساد والاضرار لما بلغه من هؤلاء فكم بالحرى
أن يبلغ منا اذا لم يجدوه فى أصدقائنا الذين اخترناهم على الايام
وادخرناهم للشدائد وأحللناهم محل أرواحنا وزدناهم تفضلا
واكراما * ويتبين لك من جميع ماقدمناه ان الصداقة وأصناف
المحبات التي يتم بها سعادة الانسان من حيث هو مدنى بالطبع
انما اختلفت ودخل فيها ضروب الفساد وزال عنها معنى التأحد
وعرض لها الانتشار حتي احتجنا الى حفظها والتعب الكثير
بنظامها لاجل النقائص الكثيرة التي فينا وحاجتنا الى اتمامها
مع الحوادث التي تعرض لنا من الكون والفساد فان الفضائل
الخلقية انما وضعت من أجل المعاملات والمعاشرات التى لا يتم
الوجود الانساني الا بها وذلك أن العدل انما احتيج اليه لتصحيح
المعاملات وليزول به معني الجور الذى هو رذيلة عن المتعاملين
وانما وضعت العفة فضيلة لاجل اللذات الرديئة التى تجي
الخيانات العظيمة على النفس والبدن وكذلك الشجاعة

وضعت فضيلة من أجل الامور الهائلة التى يجب أن يقـدم
الانسان عليها في بعض الاوقات ولا يهرب منها وعلى هـذا
جميع الاخـلاق المرضية التي وصفناها وحضضنا على اقتنائها
وأيضا فان جميع هذه الفضائل تحتاج الى أسباب خارجة من
الاموال والى اكتسابها من وجوهها ليمكنه أن يفعل بها فعل
الاحرار والعادل يحتاج الى مثـل ذلك ليجازى من عاشره
بجميل ويكافئ من عامله باحسان وجميعها لاتقوم الا بالابدان
والانفس وما هو خارج عنها على حسب تقسيمنا السعادات
فيما مضى وكلما كانت الحاجات أكثر احتيج الى المواد الخارجة
عنا أكثر فهذه حالة السعادة الانسانية التي لا تتم لها الا بالافعال
البدنية والاحوال المدنيـة وبالاعوان الصالحين والاصدقاء
المخلصين وهى كما تراها كثيرة والتعب بها عظيم ومن قصر
فيها قصرت به السعادة الخاصة به ولذلك صار الكسل ومحبة
الراحة من أعظم الرذائل لانهما يحولان بين المرء وبين جميع
الخيرات والفضائل ويسلخان الانسان من الانسانية ولذلك ذممنا
المتوسمين بالزهـد اذا تفردوا عن النـاس وسكنوا الجبال
والمفـازات واختاروا التوحش الذى هو ضد التمـدن لانهم

ينسلخون عن جميع الفضائل الخلقية التى عددناها كلها وكيف
يعف ويعدل ويسخو ويشجع من فارق الناس وتفرد عنهم
وعدم الفضائل الخلقية وهل هو الا بمنزلة الجماد والميت وأما
محبة الحكمة والانصراف الي التصور العقلي واستعمال الآراء
الالهية فانها خاصة بالجزء الالهي من الناس وليس يعرض لها
شيء من الآفات التى تعرض للمحبات الاخر الخلقية وضروب
الفساد ولذلك قلنا انها لاتقبل النميمة ولا نوعا من أنواع الشرور
لانها الخير المحض وسببها الخير الاول الذي لاتشوبه مادة
ولاتلحقه الشرور التي في المادة وما دام الانسان يستعمل
الاخلاق والفضائل الانسانية فانها تعوقه عن هذا الخير الاول
وهذه السعادة الالهية ولكن ليس يتم له الا بتلك ومن حصل
تلك الفضائل بنفسه ثم اشتغل عنها بالفضيلة الالهية فقد اشتغل
بذاته حقا ونجا من مجاهدات الطبيعة وآلامها ومن مجاهدات
النفس وقواها وصار مع الارواح الطيبة واختلط بالملائكة
المقربين فاذا انتقل من وجوده الاول الى وجوده الثاني حصل
فى النعيم الابدي والسرور السرمدي وقد أطلق أرسطوطاليس
جميع هذه الالفاظ وقال ان السعادة التامة الخالصة هى لله

عز وجل ثم للملائكة والمتألهين * ثم قال ولا ينبغي أن يضاف الى الملائكة تلك الفضائل التى عددناها في سعادة الانسان فانهم لا يتعاملون ولا يكون عند أحد منهم وديعة فيحتاج الى ردها ولا لاحد منهم تجارة فيحتاج الى العدالة ولا يفزعه شيء فيحتاج الى النجدة ولا له نفقات فيحتاج الى الذهب والفضة ولا له شهوات فيحتاج الى ضبط النفس والى فضيلة العفة ولا هو مركب من الاسطقسات (١) الاربعة التى تحل في أضدادها فيحتاج الى الغذاء فاذن هؤلاء الابرار المطهرون من خلق الله عز وجل غير محتاجين الى الفضائل الانسية والله تعالى وتقدس وجل أعلى من ملائكته فيجب أن ننزهه عن جميع ماذكرناه من فضائل الانسان وانما نذكره بالخير البسيط الذي يشبهه وننسب اليه الامور العقلية التى تليق به فبالحق الواجب الذى لا مرية فيه لا يحبه الا السعيد الخير من الناس الذي يعرف السعادة والخير بالحقيقة فلذلك يتقرب اليه بهما جهده ويطلب مرضاته بقدر طاقته ويتقبل أوامره بنحو

---

(١) قوله الاسطقسات أى الاصول الاربع وهي العناصر الحالة فى كل مايباين الملائكة وان كان أطلق الضد على المباين اه

استطاعته ومن أحب الله تعالى هذه المحبة وتقرب اليه هذا التقرب وأطاعه هذه الطاعة أحبه الله وقربه وأرضاه واستحق خلته التي أطلقتها الشريعة على بعض البشر حيث قيل ابراهيم خليل الله * وأما أرسطوطاليس فانه أطلق بعد ذلك بالعلة غير مطلق في لغتنا وذلك انه قال من أحب الله تعاهده كما يتعاهد الاصدقاء بعضهم بعضا وأحسن اليه ولذلك يظن بالحكيم اللذات العجيبة وضروب الفرح الغريبة ويرى من تحقق بالحكمة أنها ملذة غاية الالتذاذ فلا يلتفت الى غيرها ولا يعرج على سواها واذا كان الامر على ما وصفنا فالحكيم السعيد التام الحكمة هو الله تعالى فليس يحبه الا السعيد الحكيم بالحقيقة لان الشبيه انما يسر بشبيهه فقط ولذلك صارت هذه السعادة أرفع وأعلي من تلك السعادة التي ذكرناها وهي غير منسوبة الى الانسان لانها مهدية من الحياة الطبيعية مبرأة من القوي النفسانية مباينة لجميعها غاية المباينة وانما هي موهبة الهية يهبها الباري جلت عظمته لمن اصطفاه من عباده ثم التمسها منه وسعى لها سعيه ورغب فيها ولزمها مدة حياته واحتمل المشقة والتعب فان من لم يصبر على ادامة التعب اشتاق اللعب وذلك ان

اللعب يشبه الراحة والراحة ليست من تمام السعادة ولا من
أسبابها وانما يميل الى الرحات البدنية من كان طبيعي الشكل
بهيمي البخار كالعبيد والصبيان والبهائم فليس ينسب الحيوان
غير الناطق ولا الصبيان والعبيد الى السعادة ولا من كان
مناسبا لهم وأما العاقل الفاضل فانه يطلب بهمته أعلى المراتب
وأرسطوطاليس يقول ليس ينبغى أن تكون همم الانسان
انسية وان كان انسانا ولا يرضي بهمم الحيوان الميت وان كان
هو أيضا ميت بل يقصد بجميع قواه أن يحي حياة الهية فان
الانسان وان كان صغير الجثة فهو عظيم بالحكمة شريف
بالعقل والعقل يفوق جميع الخلائق لانه الجوهر الرئيس
المستولى على هذا الكل بأمر مبدعه تعالى جده وقد قلنافيما
تقدم ان الانسان مادام في هذا العالم فهو محتاج الى حسن
الحال الخارجة عنه ولكن ينبغي ان لا ينصرف الى طلب ذلك
بقوته كلها ولا يطلب الاستكثار منه فقد يصل الى الفضيلة
من ليس بكثير المال ولاظاهر اليسار فان الفقير من المال
والاملاك قد يفعل الافعال الكريمة ولذلك قالت الحكماء
ان السعداء هم الذين رزقوا القصد من الخيرات الخارجة

عنهم وفعلوا الافعال التي تقتضيها الفضيلة وان كانت فيهم قليلة * هذا كلام الحكيم في هذه المرتبه التي وعدناك الكلام فيها وهو يقول بعد ذلك ليس في معرفة الفضائل كفاية بل الكفاية في العمل بها ومن الناس من ينهض الى الفضائل وينقاد الى الموعظة ويرغب في الخيرات وهؤلاء قليلون وهم الذين يمتنعون من جميع الرداآت والشرور وذلك للغريزة الجيدة والطبع الجيد الفائق ومنهم من ينقاد الى الخيرات حتى يمتنع من الرداآت والشرور بالوعيد والفزع والانذارات من العذاب فيهرب من الجحيم والهاوية وما أعد فيها من الآلام ولذلك حكمنا أن بعض الناس أخيار بالطبع وبعضهم أخيار بالشرع وبالتعلم فالشريعة تجرى لهؤلاء مجرى الماء للانسان الذي به يسيغ غصته ومن لا ينقاد لها فهو كالشرق بالماء فلا يشرب الماء ولا يجد ما يسيغ غصته وهو الهالك الذي لا حيلة فيه ولا طمع في اصلاحه وبرئه ولهذه العلة قلنا ان من كان بالطبع خيرا فاضلا فذلك محبة الله اياه وليس أمره الينا ولا نحن كنا سببه بل الله عز وجل * ومثل هذا هو الذي يقول فيه أرسطوطاليس ان عناية الله به اكبر * فتحصل مما قدمناه

ان اصناف السعداء من الناس اربعة وهم موجودون بالتصفح والحس وذلك انا نجد من الناس من هو خير فاضل من مبدإ كونه نرى فيه النجابة طفلا ونتفرس فيه الفلاحة ناشئا بأن يكون حيا كريم الخيم يؤثر مجالسة الاخيار ومؤانسة الفضلاء وينفر من اضدادهم وليس يكون كذلك الا بعناية تلحقه من أول مولده كما قلنا * ونجد ايضا من لا يكون بهذه الصفة من مبدء كونه بل يكون كسائر الصبيان الا انه يسعى ويجتهد ويطلب الحق اذا رأى اختلاف الناس فيه ولا يزال كذلك حتى يبلغ مرتبة الحكماء أعني ان يصير علمه صحيحا وعمله صوابا وليس يبلغ هذه الدرجة الا بالتفلسف واطراح العصبيات وسائر ما حذرنا منه * ونجد أيضا من يوجد بهذه السيرة أخذا على الاكراه اما بالتأديب الشرعي واما بالتعليم الحكمي ومعلوم ان المطلوب هو القسم الثاني اذا كانت الاقسام الباقية هي من خارج ولا يمكن أن تطلب أعني أن من يتفق له في أصل مولده السعادة ومن يكره عليها ليس من اقسام الطالب المجتهد وتبين أيضا مقام الطالب المجتهد ومنزلته من السعادة التامة الحقيقية وانه وحده من بين سائر الطبقات هو السعيد

الكامل المقرب الى الله عز وجل المحب المطيع المستحق خلته ومحبته كما تقدم وصفه تمت المقالة الخامسة

﴿ المقالة السادسة ﴾

نبتدئ بعون الله وتوفيقه وتأييده في هذه المقالة بذكر شفاء الامراض التي تلحق نفس الانسان وعلاجها ونذكر الاسباب والعلل التي تولدها وتحدث منها فان حذاق الاطباء لايقدمون على علاج مرض جسماني الا بعد أن يعرفوه ويعرفوا السبب والعلة فيه ثم يرومون مقابلته باضداده من العلاجات ويبتدؤن من الحمية والادوية اللطيفة الى أن ينتهوا في بعضها الى استعمال الاغذية الكريهة والادوية البشعة وفي بعضها الى القطع بالحديد والكي بالنار * ولما كانت النفس قوة الهية غير جسمانية وكانت مع ذلك مستعملة لمزاج خاص ومربوطة به رباطا طبيعيا الهيا لايفارق أحدهما صاحبه الا بمشيئة الخالق عز وجل وجب أن نعلم أن أحدهما متعلق بصاحبه متغير بتغيره فيصح بصحته ويمرض بمرضه ونحن نرى ذلك مشاهدة وعيانا بما يظهر لنا من أفعالها وذلك انا كما نرى المريض من جهة بدنه لاسيما ان كان سبب أمراضه أحد الجزئين الشريفين

أعني الدماغ والقلب يتغير عقله ويعرض حتى يتكدر ذهنه وفكره وتخيله وسائر قوي نفسه الشريفة ويحس هو من نفسه بذلك كذلك أيضا نري المريض من جهة نفسه اما بالغضب واما بالحزن واما بالعشق واما بالشهوات الهائجة به تتغير صورة بدنه حتى يضطرب ويرتعد ويصفر ويحمر ويهزل ويسمن ويلحقها ضروب التغير المشاهدة بالحس * فيجب لذلك أن نتفقد مبدأ الامراض اذا كان من نفوسنا فان كان مبدؤها من ذاتها كالفكر في الاشياء الرديئة واجالة الرأى فيها وكاستشعار الخوف والخوف من الامور العارضة والمترقبة والشهوات الهائجة قصدنا علاجها بما يخصها وان كان مبدؤها من المزاج أو من الحواس كالخور الذى مبدؤه ضعف حرارة القلب مع الكسل والرفاهية وكالعشق الذى مبدؤه النظر مع الفراغ والبطالة قصدنا أيضا علاجه بما يخص هذه * وأيضا لما كان طب الابدان ينقسم بالقسمة الاولى الى قسمين أحدهما حفظ صحتها اذا كانت حاضرة والآخر ردها اليها اذا كانت غائبة وجب أن نقسم طب النفوس هذه القسمة بعينها فنردها اذا كانت غائبة ونتقدم في حفظ صحتها اذا كانت حاضرة * فنقول اذا

كانت خيرة فاضلة تحب نيل الفضائل وتحرص على اصابتها وتشتاق الى العلوم الحقيقية والمعارف الصحيحة فيجب على صاحبها أن يعاشر من يجانسه ويطلب من يشاكله ولا يأنس بغيرهم ولا يجالس سواهم ويحذر كل الحذر من معاشرة أهل الشر والمجون والمجاهرين باصابة اللذات القبيحة وركوب الفواحش المفتخرين بها المنهمكين فيها ولا يصغى الى أخبارهم مستطيبا ولا يروى أشعارهم مستحسنا ولا يحضر مجالسهم مبتهجا وذلك ان حضور مجلس واحد من مجالسهم وسماع خبر واحد من أخبارهم يتعلق من وضره ووسخه بالنفس مالا ينغسل عنها الا بالزمان الطويل والعلاج الصعب وربما كان سببا لفساد الفاضل المحنك وغواية العالم المستبصر حتى يصير فتنة لهم فضلا عن الحدث الناشىء والمتعلم المسترشد . والعلة فى ذلك ان محبة اللذات البدنية والراحات الجسمية طبيعة الانسان لاجل النقائص التى فيه فنحن بالجبلة الاولى والفطرة السابقة الينا نميل اليها ونحرص عليها وانما نزم أنفسنا عنها بزمام العقل حتى نقف عند ما رسم لنا ونقتصر على المقدار الضرورى منها وانما استثنيت فى أول هذا الكلام وشرطت بما شرطت لان

معاشرة الاصدقاء الذين ذكرت أحوالهم فى المقالة المتقدمة وحكمت بتمام السعادة معهم ولهم لا تتم الا بالمؤانسة والمداخلة ولا بد فى ذلك من المزاج المستعذب والاحاديث المستطابة والفكاهة المحبوبة واصابة اللذة التي تطلقها الشريعة ويقدرها العقل حتى لا يتجاوزها الى الاسراف فيها ولا يقصر عنها تهاونا بها وذلك ان الخروج الى أحد الطرفين ان كان الى جانب الزيادة سمي مجونا وفسقا وخلاعة وما أشبهها من أسماء الذم وان كان الى جانب النقصان سمي فدامة [1] وعبوسا وشكاسة وما أشبهها من اسماء الذم أيضا والمتوسط بينهما هو الظريف الذي يوصف بالهشاشة والطلاقة وحسن العشرة ويعرض من الصعوبة في وجود هذا الوسط ما يعرض فى سائر الفضائل الخليقة * ومما يؤخذ به من يحفظ صحة نفسه ان يلتزم وظيفة من الجزء النظرى والعملى لا يسوغ له الاخلال بها ألبتة لتجرى النفس مجرى الرياضة التى تلزم في حفظ صحة البدن وأطباء النفوس أشد تعظيما لها فى حفظ صحة النفس وذلك ان النفس متى تعطلت من النظر وعدمت الفكر والغوص على

(١) مراده بالفدامة العي تقول رجل فدم بالفتح أى عي بين الفدامة اه

المعاني تبلدت وتبلهت وانقطعت عنها مادة كل خير واذا ألفت الكسل وتبرمت [1] بالروية واختارت العطلة قرب هلاكها لان في عطلتها هذه انسلاخا من صورتها الخاصة بها ورجوعا منها الي رتبة البهائم وهذا هو الانتكاس في الخلق نعوذ بالله منه * واذا تعود الحدث الناشئ من مبدإ كونه الارتياض بالامور الفكرية ولازم التعاليم الاربعة ألف الصدق واحتمل ثقل الروية والنظر وأنس بالحق ونبا طبعه عن الباطل وسمعه عن الكذب فاذا بلغ أشده وانتقل الى مطالعة الحكمة استمر طبعه فيها وتشرب ما يستودع منها ولم يرد عليه أمر غريب ولا يحتاج الى كثير تعب في فهم غوامضها واستخراج دفائنها فيصل الى سعادتها التي ذكرناها سريعا وان كان حافظا هذه الصحة قد توحد في العلم وبرع فلا يحملنه العجب بما عنده على ترك الازدياد فان العلم لانهاية له وفوق كل ذي علم عليم ولا يتكاسلن عن معاودة ما علمه والدرس له فان النسيان آفة العلم وليتذكر قول الحسن البصري رحمة الله عليه (حادثوا) هذه النفوس فانها طلعة وحادثوها فانها سريعة الدثور واعلم أن

(١) تبرمت أى سئمت وضجرت اهـ

هذه الكلمات مع قلة حروفها كثيرة المعانى وهى مع ذلك فصيحة واستوفت شرط البلاغة* وليعلم أيضا حافظ هذه الصحة على نفسه انه انما يحفظ عليها نعما شريفة جليلة موهوبة لها وكنوزا عظيمة مدخرة فيها وملابس فاخرة مفرغة عليها وأن من كانت هذه المواهب الجليلة موجودة له فى ذاته لا يحتاج الي تطلبها من خارج ولا الى بذل الاموال فيها لغيره ولا يكا العناء والمؤن الثقال في تحصيلها ثم أعرض عنها وأهمل أمرها حتى انسلخ عنها وعرى منها للوم فى فعله مغبون فى رأيه غير رشيد ولا موفق لاسيما وهو يرى طالبي النعم الخارجة كيف يتجشمون الاسفار البعيدة الخطرة ويقطعون السبل المخوفة الوعرة ويتعرضون لضروب المكاره وأنواع التلف من السباع العادية وطبقات الاشرار الباغية وهم يخيبون في أكثر الاحوال مع مقاساة هذه الاهوال وربما عرضت لهم الندامات المفرطة والحسرات المعطبة التى تقطع أنفاسهم وتفصل أعضاءهم فان ظفروا بشيء من مطالبهم كان لا محالة زائلا عن قرب أو معرضا للزوال وغير مطموع فى بقائه لانه من خارج وما كان خارجا عنا فهو غير ممتنع عما يطرقه من الحوادث التي لا تحصي كثرة

وصاحبه مع هذه الحال شديد الوجل دائم الاشفاق متعب
الجسم والنفس يحفظ مالا يجد الى حفظه سبيلا والحذر على
مالا يغني فيه الحذر فتيلا وان كان طالب هذه الاشياء الخارجة
عنا سلطانا أوصاحب سلطان تضاعفت عليه هذه المكاره
أضعافا كثيرة بقدر مايلابسه وبحسب مايقاسيه من الاضداد
والحساد على البعد ومن القرب وبكثرة ما يحتاج اليه من المؤن
في استصلاح من يليه ويلي من يليه من مدارة من يواليه
ويعاديه وهو في كل ذلك ملوم مستبطأ ومعتب مستقصر
ويستزيده جميع أهله والمتصلين به ولا سبيل له الى ارضاء
واحد منهم فضلا عن جميعهم ولا يزال يبلغه عن أخص الناس
به من أولاده وحرمه ومن يجري مجراهم من حاشيته وخوله
ما علؤه غيظا وحنقا وهو غير آمن على نفسه من جهتهم مع
التحاسد الذي بينهم من مكاتبة الاعداء اياه ومواطأة الحساد
لهم وكلما ازداد من الاعوان والاعضاد والانصار زادوه في
شغل القلب وجلبوا اليه من المكاره ما لم يكن عنده فهو غني
عند الناس وهو أشدهم فقرا ومحسود وهو أكثرهم حسدا
وكيف لا يكون فقيرا وحد الفقر هو كثرة الحاجة فأكثر

الناس حاجة أشدهم فقرا كما ان أغنى الناس أقلهم حاجة ولذلك
حكمنا حكما صادقا بأن الله تعالى أغني الاغنياء لانه لاحاجة
به الي شيء من الاشياء وحكمنا أيضا ان أعظم الملوك مناهم
أشد الناس فقرا لكثرة حاجته الى الاشياء ولقد صدق
أبوبكر الصديق فى خطبته حيث قال أشقي الناس فى الدنيا
والآخرة الملوك ثم وصفهم فقال ان الملك اذا ملك زهده الله
فيما فى يده ورغبه فيما فى يد غيره وانتقصه شطر اجله وأشرب
قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل ويتسخط بالكثير ويسأم
الرخاء وانقطعت عنه لذة البهاء لا يستعمل العزة ولا يسكن الى
الثقة فهو كالدرهم الغش والسراب الخادع جلد الظاهر حزين
الباطن فاذا وجبت نفسه ونضب عمره ومحى ظله حاسبه فأشد
حسابه وأقل عفوه ألا ان الملوك هم المرحومون فهذه صفة
الملك اذا تمكن من ملكه لا يغادر منه شيأ ولقد سمعت أعظم
من شاهدت من الملوك يستعيد هذا الكلام ثم يستعبر
لموافقته ما فى قلبه وصدقه عن حاله وصورته ولعل من يرى
ظاهر الملوك من الاسرة والفرش والزينة والاثاث ويشاهدهم
في مواكبهم محفوفين محشودين بين أيديهم الجنائب والمراكب

والعبيد والخدم والحجاب والحشم يروعه ذلك فيظن انهم
مسرورون بما يراه لهم لا والذي خلقهم وكفانا شغلهم انهم لفى
هذه الاحوال ذاهلون مما يراه البعيد لهم مشغولون بالافكار
التى تمتورهم وتعتريهم فيما حكيناه من ضروراتهم وقد جربنا
ذلك في اليسير مما ملكناه فدلنا على الكثير مما وصفناه
ولعل بعض من يصل الى الملك أو السلطان فالتذ في
مبدىء أمره مدة يسيرة جدا بمقدار ما يتمكن منه وتتفتح
عينه فيه ولكنه بعد ذلك يصير جميع ما ملكه كالشيء
الطبيعي له لا يلتذبه ولا يفكر فيه ويمد عينه الى مالا يملكه فلو
ملك الدنيا بحذافيرها لتمنى دنيا أخرى أو نزقت همته الى
البقاء الابدى والملك الحقيقى حتى يتبرم بجميع ما وصل اليه
وبلغته قدرته وذلك ان حفظ الدنيا أصعب جدا لما في طبيعتها
من الاخلال والتلاشي ولما يضطر الملك اليه من الامور التى
وصفناها والاموال الجمة المصروفة الى الجند المرتبطين والخدم
المتسومين والذخائر والكنوز المعدة للآفات والحوادث التى
لا يؤمن طروقها فهذه حال طلاب النعم الخارجة عنا *وأما تلك
النعم التى هى في ذواتنا فانها موجودة عندنا وفينا وهى غير

مفارقة لنا لانها موهبة الخالق جل وعلا وقد أمرنا باستثمارها والترقى فيها فاذا قبلنا أمره أثمرت لنا نعم بعد نعم ورقينا درجة بعد درجة حتى تؤدينا الى النعم الابدية التي وصفناها فيما تقدم وهو الملك الحقيق الذي لا يزول والغبطة الابدية الصافية التي لا تحول فمن أخسر صفقة وأظهر سقطة ممن أضاع جواهر نفيسة باقية هي عنده وموجودة له وطلب اعراضا خسيسة فانية ليست عنده ولا موجودة له فان اتفق أن يجدها لم تبق له ولم تترك عليه وذلك انها تنقل عنه أو ينقل عنها لا محالة فلذلك قال الحكيم لمن رزق الكفاية ووجد القصد من السعادة الخارجة أن لا يشتغل بفضول العيش فانها بلا نهاية ومن طلبها أوقعته في مهالك بلا نهاية لها وقد أعلمناك فيما تقدم ما الكفاية وما القصد وان الغرض الصحيح بينهما هو مداواة الآلام والتحرز من الوقوع فيها لا التمتع وطلب اللذة وان من عالج الجوع والعطش اللذين هما مرضان وألمان حادثان لا ينبغي له ان يقصد لذة البدن بل صحته وسيلتذ لا محالة فان من طلب بالعلاج اللذة لا الصحة لم تحصل له الصحة ولم تبق له اللذة وأما من لم يرزق الكفاية واحتاج الى السعي والاضطراب في تحصيلها

فيجب أن لا يتجاوز القصد وقدر حاجته منها الي ما يضطر معه الى السعي الحثيث والحرص الشديد والتعرض لقبيح المكاسب أو ضروب المهالك والمعاطب بل يجمل في طلبها اجمال العارف بخساستها وأنه يضطر اليها لنقصانه فيطلب منها كسائر الحيوانات في ضروراتها فان العاقل اذا تصفح أحوالها وجد منها ما يأكل الميتة ومنها ما يأكل الروث وما في الحش وهي مسرورة بما تجده من أقواتها قريرة العين بها وليست تحس من نفوسها نفورا ولا تنصرف نفوسها عنها كما تنصرف نفوس الحيوان المضاد لها بل انما تنصرف من أقوات تلك الأخر التى تضادها فى النظافة ومثال ذلك الجعل والخنافس اذا قيست الى النحل فان تلك تهرب من الروائح الطيبة والاقوات النظيفة وهذا يطلبها ويسربها فاذن نسبة كل حيوان الى قوته الخاص به ككل مقتنع بما يحفظ بقاءه وحياته وطالب مسرور به فينبغى أن ننظر الى أقواتنا بهذه العين وننزلها منزلة الحش الذى نضطر الى ملابسته لاخراج ما كنا نحرص على الوصول اليه فلا نبعدها من هذا الآخر لانهما ضرورتان لنا فنحن نلابسهما لاجل الضرورة ولا نشغل عقولنا باختيارهما والتمتع

بهما وافناء أعمارنا فى التأنق لهما والتوصل اليهما ولا نتكاسل أيضا عن اعداد ضروراتنا منهما وانما يفضل أحدهما على الآخر ويستحسن السعى في طلب الدخل ولا يستحسن السعي في طلب الخرج لان الاول منهما هو غذاء موافق لنا يخلف علينا ما تحلل من أبداننا ولا نستقذره كذلك لا ننفر مما نضعه مكان ما ينقص منه وينوب عنه وأما الثانى منهما فهو عصارة ذلك الغذاء وما نفته الطبيعة وأخذت حاجتها منه أعني الذي أحالته دما صافيا وفرقته في العروق على الاعضاء واطرحت الثفل الذي لاحاجة بها اليه وهو فى غاية المخالفة والبعد من أمزجتنا فنحن نستوحش منه وننفر عنه لاجل الضدية والمخالفة الا أنا مضطرون الى اخراجه وتنحيته ونفضه عنا بالآلات الموهوبة والمستعملة في ذلك ليفرغ مكانه لما يأتى بعده ويجرى مجراه وينبغي لحافظ الصحة على نفسه أن لا يحرك قوته الشهوانية وقوته الغضبية بتذكر ما أصاب منهما فوجد لذته بل يتركهما حتى يتحركا بأنفسهما واعنى بهذا أن الانسان ربما تذكر لذاته من إصابة الشهوات وطيبها ومراتب كرامته من السلطان وغيرها فاشتاق اليها واذا اشتاق اليها تحرك نحوها فقد جعلها غرضا له

فيضطر الى استعمال الروية واستخدام النفس الناطقة فيه لتدبر له الوصول اليه وهذه صورة من يثير بهائم عادية ويهيج سباعا ضارية ثم يلتمس معالجتها والخلاص منها وليس يختار العاقل لنفسه هذه الحال بل هي من أفعال المجانين الذين لا يميزون بين الخير والشر ولا بين الصواب والخطأ ولذلك يجب أن لا يتذكر أعمال هاتين القوتين لئلا يشتاق اليها ويتحرك نحوها بل يتركهما فانهما سيثوران لانفسهما ويهيجان عند حاجتهما ويلتمسان ما يحتاج البدن اليه ويتخذان من باعث الطبيعة ما يغنيك عن بعثهما بالفكر والروية والتمييز فيكون حينئذ فكرك وتمييزك في ازاحة علتهما وتقدير ما تطلقه لهما في الامر الضروري الواجب لابداننا الحافظ لصحتها وهذا هو امضاء مشيئة الله تعالى واتمام سياسته لانه تعالى انما وهب هاتين القوتين لنا لنستخدمهما عند حاجتنا اليهما لا لنخدمهما ونتعبد لهما فكل من استعمل النفس الناطقة في خدمة عبيدها فقد تجاوز أمر الله وتعدي حدوده وعكس سياسته وتقديره وذلك ان خالقنا عز وجل رتب لنا هذه القوي بتدبيره وتقديره ولا عدل أشرف وأفضل من ترتيبه وتقديره وكل من خالفه

وعدل عنه فهو أعظم جائر على ذاته وأكبر ظالم لنفسه وينبغي لحافظ الصحة على نفسه أن يلطف نظره في كل ما يعمل ويدبر ويستعمل فيه آلات بدنه ونفسه لئلا يجرى فيها على عادة تقدمت له مخالفة لما يوجب تمييزه ورويته فما أكثر ما يعرض للانسان بدوّ أفعال تخالف لما قدم فيه عزيمته وعقد عليه رأيه فمن عرض له مثل هذا فيجب عليه أن يضع لنفسه عقوبات يقابل بها أمثال هذه الذنوب فاذا أنكر من نفسه مبادرة الى طعام ضار أو ترك حمية قد كان استشعرها أو تناول فاكهة غير موافقة أو حلواء كذلك عاقب نفسه بصوم لا يفطر فيه الا على ألطف مما يقدر عليه وأقله وان أمكنه الطي فليطو ويزيد في الحمية من غير حاجة اليها ويمكن في توبيخه لنفسه أن تقول لها انك قصدت تناول النافع فتناولت الضار وهذا فعل من لا عقل له ولعل كثيرا من البهائم أحسن حالا منك لانه ليس فيها ما تقصد لذة لها ثم تتناول ما يؤلمها فاستمسكي الآن للعقوبة وان أنكر من نفسه مبادرة الي غضب في غير موضعه أو على من لا يستحقه أو زيادة على ما يجب منه فليقابل ذلك بالتعرض لسفيه يعرفه بالبذاء ثم ليتحمله وليتذلل لمن

يعرفه بالخيرية ممن كان لا يتواضع له قبل ذلك أو ليفرض على
نفسه ما لا يخرجه صدقة وليجعل ذلك نذرا عليه لا يخل به
وان أنكر من نفسه كسلا وتوانيا في مصلحة له فليعاقب نفسه
بسعي فيه مشقة أو صلاة فيها طول أو بعض الاعمال الصالحة
التي فيها كد وتعب وبالجملة فليرسم على نفسه رسوما تصير عليها
فرائض وحدودا لا يخل بها ولا يترخص فيها اذا أنكر من نفسه
مخالفة لعقله وتجاوز المرسومه وليحذر في جميع أوقاته ملابسة رذيلة
أو مساعدة رفيق عليها أو مخالفة صواب ولا يستحقرن شيأ مما
يأتيه من صغار السيآت ولا يطلبن رخصة فيها فان ذلك
يدعوه الى أعظم منها ومن تعود في أول نشوءه وحداثة
شبابه ضبط النفس عن شهواتها عند ثورة غضبه وحفظ لسانه
واحتمال أقرانه خف عليه ما يثقل على غيره ممن لم يتأدب بهذه
الآداب * وبيان ذلك انا نجد العبيد وأشباههم اذا باؤا بتولي
سوء يسفهون عليهم ويسبون أعراضهم هان عليهم الخطب
فيما يسمعونه حتى لا يؤثر فيهم وربما تضاحكوا عند سماع
مكروه شديد ضحكا غير متكلف ويعملون عند ذلك أعمالهم
وادعين طلقين غير قلقين وقد كانوا قبل ذلك شرسين ضجرين

غير محتملين ولا ممسكين عن الاجوبة والانتقام بالكلام وطلب التشفي بالخصام وهذه سبيلنا اذا ألفنا الفضائل وتجنبنا الرذائل وأمسكنا عن مقابلة السفهاء ومجازاتهم والانتقام منهم * ويجب على حافظ الصحة على نفسه أن يتشبه بالملوك الموصوفين بالحزم فانهم يستعدون للاعداء بالعدة والعتاد والتحصن قبل هجوم العدو وهم في مهلة من زمانهم وفي اتساع من نظرهم ولو أغفلوا ذلك الي أن تحل بهم المكاره وتطرقهم الشدائد لأذهلهم الامر عن الحيلة وعن الرأى السديد * فعلى هذا الاصل يجب أن نبني أمورنا في الاستعداد لاعدائنا من الشره والغضب وسائر ما يزيلنا عن أغراضنا من الفضائل بأن نتعود الصبر على ما يجب الصبر عليه والحلم عمن ينبغي ان يحلم عنه ونضبط النفس عن الشهوات الرديئة ولا ننتظر دفع هذه الرذائل وقت هيجانها فان الامر عند ذلك صعب جدا ولعله غير ممكن ألبتة * ويجب على حافظ الصحة على نفسه أن يطلب عيوب نفسه باستقصاء شديد ولا يقنع بما قاله جالينوس في ذلك فانه ذكر في كتابه المعروف بتعرف المرء عيوب نفسه انه لما كان كل انسان يحب نفسه خفيت عليه معايبه ولم يرها وان كانت ظاهرة

وأشار في كتابه هذا بان يختار من يحب أن يبرأ من العيوب
صديقا كاملا فاضلا فيخبره بعد طول المؤانسة انه انما يعرف
صدق مودته اذا أصدقه عن عيوبه حتى يتجنبها ويأخذ عهده على
ذلك ولا يرضي منه اذا قال له لا أعرف لك عيبا بل ينكر عليه
ويعلمه أنه قد اتهمه بالخيانة ويعاود مسئلته والالحاح عليه فاذا لم
يخبره بشيء من عيوبه زاد في العتب الصريح والالحاح قليلا فاذا
أخبره ببعض ما يعثر عليه منه فلا يظهر له في وجهه أو كلامه نكرة
ولا انقباضا بل يبسط له وجهه ويظهر السرور بما أخرجه اليه
ونبهه عليه ويشكره على الايام وفي أوقات المؤانسة ليتطرق
له الى اهداء مثله اليه ثم يعالج ذلك العيب بما يزيل أثره ويمحو
ظله ليعلم ذلك المهدى اليك عيبك انك من وراء نفسك وفي
طريق علاج مرضك فلا ينقبض عن معاودتك ونصيحتك
وهذا الذى أشار به جالينوس معوز غير موجود ولا مطموع
فيه ولعل العدو فى هذا الموضع أنفع من الصديق فان العدو
لا يحتشمنا في اظهار عيوبنا بل يتجاوز ما يعرف منا الى التحرض
والكذب فيها فلنتنبه على كثير من عيوبنا من جهتهم بل
نتجاوز ذلك الى أن نتهم نفوسنا بما ليس فيها ولجالينوس أيضا

مقالة يخبر أن خيار الناس ينتفعون بأعدائهم وهذا صحيح لا يخالفه فيه أحد وذلك لما ذكرناه فأما ما اختاره أبو يوسف بن اسحاق الكندى في ذلك فهو ما حكاه بألفاظه وهو هذا قال ينبغي لطالب الفضيلة لنفسه أن يتخذ صور جميع معارفه من الناس مرآة له تريه صور كل واحد منهم عند ما تعرض له آلام الشهوات التي تثمر السيئات حتى لا يغيب عنه شيء من السيئات التي له وذلك انه يكون متفقدا سيئات الناس فمتى رأى سيئة بادية من أحد ذم نفسه عليها كأنه هو فعلها وأكثر عتبه على نفسه من أجلها ويعرض عليها كل يوم وليلة جميع أفعاله حتى لا يشذ عنه شيء منها فانه قبيح بنا أن نجتهد في حفظ ما نقصناه من الحجارة الدنيئة والارمدة الهامدة الغريبة منا التي لا ينقصنا عدمها ألبتة في كل يوم ولا نحفظ ما ينفق من ذواتنا التي بتوفيرها بقاؤنا وبنقصانها فناؤنا فاذا وقفنا على سيئة من أفعالنا اشتد عزلنا لانفسنا عليها ثم لنقيم عليها حدا نفرضه ولا نضيعه واذا تصفحنا أفعال غيرنا ووجدنا فيها سيئة عاتبنا أيضا نفوسنا عليها فان نفوسنا ترتدع حينئذ عن المساوى وتألف الحسنات وتكون المساوى أبدا ببالنا لا ننساها ولا يأتي عليها زمان

طويل فيمنى ذكرها ولذلك ينبغى أن نعمل في الحسنات انفرغ اليها ولا يفوتنا منها شيء قال وينبغى أن لا نقطع بأن نصير أشباه الدفاتر والكتب التي تفيد غيرها معانى الحكمة وهى عادمة اقتنائها أو كالمسان يشحذ ولا يقطع بل نكون كالشمس التى تفيد القمر كلما أشرقت عليه إنارة من ذاتها فتفعل له تماما حتى يكون له شبهها وان قصر عن نورها فهكذا ينبغى أن يكون حالنا اذا أفدنا غيرنا الفضائل وهذا الذي ذكره الكندى فى ذلك أبلغ مما قاله من تقدمه هذا آخر المقالة السادسة

﴿ المقالة السابعة ﴾

فى ردّ الصحة على النفس اذا لم تكن حاضرة وهو القول في علاج امراضها ونبتدئ بعونة الله تعالى بذكر أجناس هذه الامراض الغالبة ثم بمداواة الاعظم فالاعظم منها نكاية والا كثر فالا كثر جناية * فنقول أما أجناسها الغالبة فهى مقابلات الفضائل الاربع التي احصيناها فى صدر الكتاب ولما كانت الفضائل أوساطا محدودة وأعيانا موجودة أمكن أن تطلب وتقصد وينتهى اليها الحركة والسعى والاجتهاد وأما سائر النقط التى ليست بأوساط فانها غير محدودة ولا أعيانها

موجودة ووجودها بالعرض لا بالذات ومثال ذلك أن الدائرة لها مركز واحد وهى نقطة واحدة ولها وجود فى ذاتها يقصد ويشار اليها فان لم نجدها حسا أو لم يمكننا الاشارة اليها أمكننا أن نستخرجها ونقيم البرهان على أنها هى المركز دون غيرها من النقط وأما النقط التى ليست بمركز فانها لا نهاية لها ولا وجود لها بالذات وانما توجد اذا فرضت فرضا وليست لها عين قائمة فلذلك لا تقصد ولا يمكن استخراجها لانها مجهولة ولانها شائعة فى جميع الدائرة وأما الطرفان اللذان يسميان متضادين فهما موجودان معينان لانهما طرفا خط مستقيم معين والبعد بينهما غاية البعد مثال ذلك أنا اذا أخرجنا من مركز الدائرة خطا مستقيما الى المحيط صار طرفاه محدودين أحدهما المركز والآخر نهايته عند المحيط والبعد بينهما غاية البعد ومثاله من المحسوس البياض والسواد فان أحدهما يضاد الآخر وهما محدودان موجودان والبعد بين الضدين غاية البعد فأما الاوساط التى بينهما فهى بلا نهاية وكذلك الالوان هى بلا نهاية وأما أطراف الفضيلة فلما كانت أكثر من واحد لم تسم ضدا لان لكل ضد ضدا واحدا ولا يمكن أن توجد

أضداد كثيرة لضد واحد والسبب في ذلك ان البعد بينهما غاية البعد وقد نجد للفضيلة الواحدة أكثر من طرف واحد وذلك اذا تصورنا الفضيلة مركزا وأخرجنا منه خطا مستقيما فحصلت له نهاية أمكننا أن نخرج من الجانب الآخر المقابل له خطا آخر على استقامته فتصير له نهاية أخرى ويصيران جميعا مقابلتين للمركز الذي فرضناه فضيلة الا أن احداهما تجري مجري الافراط والغلو والاخرى تجري مجري التفريط والتقصير واذ قد فهم ذلك فليعلم أن لكل فضيلة طرفين محدودين يمكن الاشارة اليهما وأوساط بينهما كثيرة لانهاية لها ولا يمكن الاشارة اليها الا أن الوسط الحقيقي هو واحد وهو الذي سميناه فضيلة ثم ليعلم انا بحسب هذا البيان نجعل أجناس الشر رذائل ثمانية لانها ضعف الفضائل الاربع التى تقدم شرحها وهى هذه التهور والجبن طرفان للوسط الذي هو الشجاعة * والشره والخمود طرفان للوسط الذى هو العفة * والسفه والبله طرفان للوسط الذى هو الحكمة * والجور والمهانة أعنى الظلم والانظلام طرفان للوسط الذي هو العدالة فهذه أجناس الامراض التى تقابل الفضائل التى هي صحة النفس وتحت هذه الاجناس أنواع لانهاية

لماونبدأ بذكر التهور والجبن اللذين هما طرفا الشجاعة وهي
فضيلة النفس وصحتهافنقول انسببهما ومبدأهما النفس الغضبيه
ولذلك صارت الثلاثة باسرها من علائق الغضب والغضب
بالحقيقة هو حركة للنفس يحدث بها غليان دم القلب شهوة
للانتقام فاذا كانت هذه الحركة عنيفة أججت نار الغضب
وأضرمتها فاحتد غليان دم القلب وامتلأت الشرايين والدماغ
دخانا مظلما مضطربا يسوء منه حال العقل ويضعف فعله ويصير
مثل الانسان عند ذلك على ما حكته الحكماء مثل كهف
ملىء حريقا واضرم نارا فاختنق فيه اللهيب والدخان وعلا
التأجج والصوت المسمى وحي النار فيصعب علاجه ويتعذر
اطفاؤه ويصير كل ما يدنى للاطفاء سببا لزيادته ومادة لقوته
فلذلك يعمى الانسان عن الرشد ويصم عن الموعظة بل تصير
المواعظ في تلك الحال سببا للزيادة في الغضب ومادة للهب
والتأجج وليس يرجى له في تلك الحال حيلة وانما يتفاوت الناس
في ذلك بحسب المزاج فان كان المزاج حارا يابسا كان قريب
الحال من حال الكبريت الذي اذا أدنيت منه الشرارة الضعيفة
التهب وان كان بالضد خاله بالضد وهذا في مبدإ أمره وعنفوانه

حركة الغضب به فأما اذا احتدم [1] فيكاد الحال يتقارب فيه وتصور ذلك من الحطب اليابس والرطب ومبدإ اشتعال النار بسرعة وشدة من الكبريت والنفط ثم انحدر منهما الى الادهان المتوسطة الى أن تنتهي الى الاحتكاك فان الاحتكاك وان كان ضعيفا في توليد النار فربما قوي حتى تلتهب منه الاجمة العظيمة وكذلك مثل السحاب الذي هو من البخارين كيف يحتك حتي تنقدح بينهما النيران وينزل منها الصواعق التي لا يثبت أثرها شيء من المواد ولا يفارق ما يتعلق به حتى يصير رميا وان كان جبلا أطلس وحجرا أصم وأما بقراطس فانه قال إني للسفينة اذا عصفت الرياح وتلاطمت عليها الامواج وقذفت بها الى اللجج التي فيها الجبال أرجى مني للغضبان الملتهب وذلك ان السفينة في تلك الحال يلطف لها الملاحون ويخلصون بضروب الحيل وأما النفس اذا استشاطت غضبا فليس يرجي لها حيلة البتة وذلك ان كل ما رجي به الغضب من التضرع والمواعظ والخضوع يصير له بمنزلة الجزل من الحطب يوهجه ويزيده اشتعالا * أما اسبابه المولدة له فهي العجب والافتخار

(١) احتدمت النار اتقدت واحتدم عليه غيظا تحرق كتحدم ه م

والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والغدر والضيم وطلب الامور التي فيها لذة ويتنافس فيها الناس ويتحاسدون عليها وشهوة الانتقام غاية لجميعها لانها بأجمعها تنتهي اليه ومن لواحقه الندامة وتوقع المجازاة بالعقاب عاجلا وآجلا وتغير المزاج وتعجل الالم وذلك ان الغضب جنون ساعة وربما أدى الى التلف باختناق حرارة القلب فيه وربما كان سببا لامراض صعبة مؤدية الى التلف ثم من لواحقه مقت الاصدقاء وشماتة الاعداء واستهزاء الحساد والاراذل من الناس *ولكل واحد من هذه الاسباب علاج يبدأ به حتى يقلع من أصله فأما اذا تعمدنا لحسم هذه الاسباب وإما طنها فقد أوهنا قوة الغضب وقطعنا مادتها وأمنا غائلتها فان عرض لنا منها عارض كان بحيث نطيع العقل ونلتزم شرائطه وحدثت فضيلته أعني الشجاعة فيكون حينئذ اقدامنا على ما نقدم عليه كما يجب وبحيث يجب وبالمقدار الذي يجب وعلى من يجب *أما العجب فحقيقته ما حددناه انه ظن كاذب بالنفس في استحقاق مرتبة هي غير مستحقة لها وحقيق على من عرف نفسه ان يعرف كثرة العيوب والنقائص التي تعتورها فان الفضل مقسوم بين البشر

وليس يكمل الواحد منهم الا بفضائل غيره وكل من كانت
فضيلته عند غيره فواجب عليه أن لا يعجب بنفسه وكذلك
الافتخار فان الفخر هو المباهاة بالاشياء الخارجة عنا ومن باهى
بما هو خارج عنه فقد باهي بما لا يملكه وكيف يملك ما هو
معرض للآفات والزوال في كل ساعة وفي كل لحظة ولسنا
على ثقة منه في شيء من الاوقات وأصح الامثال وأصدقها فيه
ماقال الله عز وجل (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما
جنتين من أعناب الى قوله فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها
وهى خاوية على عروشها) وقال تعالى (واضرب لهم مثل الحياة
الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح
هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا) وفي القرآن
من هذه الامثال شيء كثير وكذلك في الاخبار [illegible]
النبي عليه الصلاة والسلام وأما الافتخار [illegible]
اذا كان [illegible] أن [illegible] كان [illegible] الفاضل وقد
ان [illegible] الذي عندك
منه ما ليس عند غيرك [illegible]
الله صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى أخبار كثيرة صحيحة [illegible]

أنه قال (لا تأتوني بأنسابكم وأتوني بأعمالكم) أو ما هذا معناه ويحكى عن مملوك كان لبعض الفلاسفة أنه افتخر عليه بعض رؤساء زمانه فقال له ان افتخرت على بفرسك فالحسن والفراهة للفرس لا لك وان افتخرت بثيابك وآلاتك فالحسن لها دونك وان افتخرت بآبائك فالفضل كان فيهم دونك فاذا كانت الفضائل والمحاسن خارجة عنك وانت منسلخ عنها وقد رددناها على اصحابها بل لم تخرج عنهم فترد عليهم وانت ممن يحقق ذلك ان شاء الله تعالى وحكى عن بعض الفلاسفة انه دخل على بعض أهل اليسار والثروة وكان يحتشد في الزينة ويفتخر بكثرة آلاته وحضر الفيلسوف بصقة فتنخم لها والتفت فى البيت يمينا وشمالا ثم بصق في وجه صاحب البيت فلما عوتب على ذلك قال اني نظرت الى البيت وجميع ما فيه فلم أجد هناك أقبح منه فبصقت عليه وهكذا يستحق من كان خاليا من فضائل نفسه وافتخر بالخارجات عنه فأما المراء واللجاج فقد ذكرنا قبح صورتهما فى المقالة التى قبل هذه وما يولد انه من الشتات والفرقة والتباغض بين الاخوان وأما المزاح فان المعتدل منه محمود وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يمزح ولا يقول الا حقا وكان أمير المؤمنين كثير المزاح حتى عابه بعض الناس فقال لولا دعابة فيه ولكن الوقوف على المقدار المعتدل منه صعب وأكثر الناس يبتدىء ولا يدرى أين يقف منه فيخرج عن حده ويروم الزيادة فيه على صاحبه حتى يصير سببا للوحشة فيثير غضبا كامنا ويزرع حقدا باقيا فلذلك عددناه فى الاسباب فينبغي أن يحذره من لا يعرف حده ويذكر قول القائل (رب جد جره اللعب وبعض الحرب أوله مزاح) ثم يهيج فتنه لا يهتدى لعلاجها وأما التيه فهو قريب من العجب والفرق بينهما ان المعجب يكذب نفسه فيما يظن لها والتياه يتيه على غيره ولا يكذب نفسه الا أن علاجه علاج المعجب بنفسه وذلك بأن يعرف أن ما يتيه به لا مقدار له عند العقلاء وانهم لا يعدون به لخساسة قدره ونزارة حظه من السعادة ولانه متغير زائل غير موثوق ببقائه ولان المال والاثاث وسائر الاعراض قد توجد عند كل صنف من الناس الاراذل والاشراف والجهال واما الحكمة فليست توجد الا عند الحكماء خاصة وأما الاستهزاء فانه يستعمله المجان من الناس والمساخر ومن لا يبالى بما يقابل به لانه قد وضع فى نفسه احتمال مثل

ذلك وأضعافه فهو ضاحك قرير العين بضروب الاستخفافات التي تلحقه وانما يتعيش بالدخول تحت المذلة والصغار بل انما يتعرض بقليل مايبتدئ به لكثير مايعامل به ليضحك غيره وينال اليسير من برّه والحرّ الفاضل بعيد من هذا المقام جدا لانه يكرم نفسه وعرضه عن تعريضهما للسفهاء وبيعهما بجميع خزائن الملوك فضلا عن الحقير التافه * وأما الغدر فوجوهه كثيرة أعني أنه قد يستعمل في المال وفى الجاه وفى الحرم وفى المودّة وهو على كثرة وجوهه مذموم بكل لسان ومعيب عند كل أحد ينفر السامع من ذكره ولا يعترف به انسان وان قل حظه من الانسانية وليس يوجد الا فى جنس من اجناس العبيد يتوقاهم الناس ويأنف منهم سائر أجناس العبيد وذلك أن الوفاء الذى هو ضده موجود في جنس الحبشة والروم والنوبة وقد شاهدنا من حسن وفاء كثير من العبيد مالم نشاهده في كثير من المتسمين بالاحرار ومن عرف قبح الغدر باسمه ونفور العقلاء منه ثم عرف معناه فليس يستعمله وخاصة من له طبيعة جيدة أو قرأ ما تقدم في هذا الكتاب وتخلق به وانتهى في قراءته الى هذا الموضع * وأما الضيم فهو تكليف

احتمال الظلم والغضب وربما يعرض منه شهوة الانتقام وقد ذكرنا فيما تقدم الظلم والانظلام وشرحنا الحال فيهما فينبغي أن لا نسرع الى الانتقام عند ضيم يلحقنا حتى ننظر فيه ونحذر أن لا يعود علينا الانتقام بضرر أعظم من احتمال ذلك الضيم وهذا النظر والحذر هو استشارة العقل وهو الحلم بعينه *

وأما طلب الامور التي فيها عزة وتتنافس فيها الناس فهو خطأ من الملوك والعظماء فضلا عن أوساط الناس وذلك أن الملك اذا حصل في خزائنه علق[1] كريم أو جوهر نفيس فهو متعرض به للجزع عند فقده ولا بد من حلول الآفات به لما عليه طبيعة عالم الكون والفساد من تغيير الامور وحالاتها وادخال الفساد على كل ما يدخر ويقتنى فاذا فقد الملك ذخيرة عزيزة لوجود ظهر عليه ما يظهر على المفجوع المصاب بما يعز عليه وتبين فقره الى نظيره الذي لا يجده فيطلع الصديق والعدو على حزنه وكآبته * وحكي عن بعض الملوك انه اهدى اليه قبة بلور صافية عجيبة النقاء والصفاء محكمة الخرط مستخرج

(١) العلق بالكسر النفيس من كل شيء والثوب الكريم والجمع أعلاق وعلوق اهـ م

منها أساطين وصور خاطر بها صانعها مرة بعد مرة في تلخيص النقوش والخروق والتجاويف التي بين الصور والاوراق فلما حصلت بين يديه كثر تعجبه منها واعجابه بها وأمر فرفعت في خاص خزائنه فلم يأت عليها كثير زمان حتى أصابها ما يصيب أمثالها من المتالف وبلغ الملك ذلك فظهر عليه من الاسف والجزع ما منعه من التصرف في أموره والنظر في مهماته والجلوس لجنده وحاشيته واجتهد الناس في وجود شيء شبيه بها فتعذر عليهم فظهر أيضا من عجزه وامتناع مطلوبه عليه ما تضاعف به جزعه وحسرته * وأما أوساط الناس فانهم متى ادخروا آلة كريمة أو جوهرا نفيسا أو اتخذوا مركوبا فارها أو ما أشبه هذه الاشياء التمسها منه من لا يمكنه رده عنها فان حاجزه عنها وبخل عليه بها فقد عرض نفسه ونعمته للبوار وان سمح بها لحقه من الغم والجزع ما كان مستغنيا عنه وأما الاحجار المتنافس فيها من اليواقيت وأشباهها مما تبعد عنها الآفات في أنفسها فليس تبعد عنها الآفات الخارجة عنها من السرقة ووجوه الحيل فيها واذا ادخرها الملك قل انتفاعه بها عند حاجته اليها وربما عدم الانتفاع بها دفعة وذلك ان الملك

اذا اضطر اليها لم تنفعه في عاجل أمره وحاضر ضرورته وقد شاهدنا أعظم الملوك خطرا في عصرنا لما احتاج اليها بعد فناء أمواله ونفاد ما في خزائنه وقلاعه لم يجد ثمنها ولا قريبا من ثمنها عند أحد ولم يتحصل منها الا على الفضيحة في حاجته الى رعيته في بعض قيمتها وهو لا يقدر على قليل ولا كثير من أثمانها وهي مبذولة متبذلة في أيدي الدلالين والتجار والسوقة يتعجبون منها ولا يقدرون عليها ومن قدر منهم على ثمن شيء منها لم يتجاسر عليه خوفا من تبعه بعد ذلك وظهور أمره وانتزاعه منه فهذه حال هذه الذخائر عند الملوك * وأما التجار الموسومون بهذه الصناعة فربما اتفق لهم زمان صالح وسكون من الرؤساء وأمن في السرب وحينئذ تكون بضاعتهم شبيهة بالكاسدة لانها لا تنفق الا على الملوك الوادعين الذين لا يحزنهم شيء من نوائب الدهر وقد استمر بهم الخفض (١) وفضلت أموالهم عن الخزائن والقلاع فحينئذ يفترون بالزمان فيقعون في مثل هذه الخدائع ثم تؤول عاقبتهم الى ما حذرنا منه * فهذه أسباب الغضب والامراض الحادثة منها ومن عرف العدلة

(١) الخفض الدعة يقال عيش خافض اهـ م

وتخلق بها كما بيناه فيما تقدم سهل عليه علاج هذا المرض لانه جور وخروج عن الاعتدال ولذلك لا ينبغي أن نسميه بأسماء المديح وأعني بذلك أن قوما يسمون هذا النوع من الجور أعني الغضب في غير موضعه رجولية وشدة شكيمة ويذهبون به مذهب الشجاعة التي هي بالحقيقة اسم للمدح وشتان ما بين المذهبين فان صاحب هذا الخلق الذي ذممناه تصدر عنه أفعال رديئة كثيرة يجور فيها على نفسه ثم على اخوانه ثم على الاقرب فالاقرب من معامليه حتى ينتهى الى عبيده والى حرمه فيكون عليهم سوط عذاب ولا يقيلهم عثرة ولا يرحم لهم عبرة وان كانوا برآء من الذنوب غير مجترمين ولا مكتسبين سوءا بل يتجرم عليهم ويهيج من أدنى سبب يجد به طريقا اليهم حتى يبسط لسانه ويده وهم لا يمتنعون منه ولا يتجاسرون على رده عن أنفسهم بل يذعنون له ويقرون بذنوب لم يقترفوها استكفافا لشره وتسكينا لغضبه وهو مع ذلك مستمر على طريقته لا يكف يدا ولا لسانا وربما تجاوز في هذه المعاملة الناس الى البهائم التي لا تعقل والى الاواني التي لا تحس فان صاحب هذا الخلق الرديء ربما قام الى الحمار والبرذون أو

الى الحمام والعصفور فيتناولها بالضرب والمكروه وربما عض القفل اذا تعسر عليه وكسر الآنية التى لا يجد فيها طاعة لامره وهذا النوع من رداءة الخلق مشهور فى كثير من الجهال يستعملونه في الثوب والزجاج والحديد وسائر الآلات * وأما الملوك من هذه الطائفة فانهم يغضبون على الهواء اذا هب مخالفا لهواهم وعلى القلم اذا لم يجر على رضاهم فيسبون ذلك ويكسرون هذا وكان بعض من تقدم عهده من الملوك يغضب على البحر اذا تأخرت سفينته فيه لاضطرابه وحركة الامواج حتى يهدده بطرح الجبال فيه وطمه بها وكان بعض السفهاء في عصرنا يغضب على القمر ويسبه ويهجوه بشعر له مشهور وذلك انه كان يتأذى به اذا نام فيه وهذه الافعال كلها قبيحة وبعضها مع قبحه مضحك مهزأ بصاحبه فكيف يمدح بالرجولية والشدة وشرف النفس وعزتها وهى بالمذمة والفضيحة أولى منها بالمدح وأى حظ لها فى العزة والشدة ونحن نجدها فى النساء أكثر منها فى الرجال وفي المرضي أقوى منها في الاصحاء ونجد الصبيان أسرع غضبا وضجرا من الرجال والشيوخ أكثر من الشبان ونجد رذيلة

الغضب مع رذيلة الشره فان الشره اذا تعذر عليه ما يشتهيه غضب وضجر على من يهيء طعامه وشرابه من نسائه وأولاده وخدمه وسائر من يلابس أمره والبخيل اذا فقد شيأ من ماله تسرع بالغضب على أصدقائه ومخالطيه وتوجهت تهمته الى أهل الثقة من خدمه ومواليه وهؤلاء الطبقة لا يحصلون من أخلاقهم الا على فقد الصديق وعدم النصيح وعلى الذم السريع واللوم الوجيع وهذه حال لا تتم معها غبطة ولا سرور وصاحبها أبدا محزون كئيب متنغص بعيشه متبرم بأموره وهى حال الشقى المحروم * وأما الشجاع العزيز النفس فهو الذي يقهر بحلمه غضبه ويتمكن من التمييز والنظر فيما يدهمه ولا يستفزه ما يرد عليه من الحركات المغضبة حتى يروّب وينظر كيف ينتقم وممن وعلى أي قدر وكيف يصفح ويغضى عمن وفي أي ذنب وقد حكى عن الاسكندر أنه وصل (١) اليه عن بعض أصحابه أنه يعيبه وينتقصه فقال له بعض أصحابه لو أدبته أيها الملك بعقوبة تنهكه بها فقال له وكيف يكون انهاكه (٢) بعد

(١) رقى اليه الكلام ترقية رفعه اليه هـ . (٢) نهكه السلطان كمنعه نهكا بالغ في عقوبته كانتهكه هـ

عقوبتى اياه في ثلبي وطلب مثالبي لانه حينئذ أبسط لسانا وأعذر عند الناس وأتى يوما ببعض أعدائه من المتغلبين الخارجين عليه وكان قد عاث في أطرافه عيثا كثيرا فصفح عنه فقال له بعض جلسائه لو كنت أنا أنت لقتلته فقال له الاسكندر فاذن لم أكن أنا أنت فلست بقاتله * فقد ذكرنا معظم أسباب الغضب ودللنا على معالجتها وحسمها وهو النوع الاعظم من أمراض النفس واذا تقدم الانسان في حسم سببه لم يخش تمكنه منه وكان مايعرض له سهل العلاج قريب الزوال لامادة له تلهبه وتمده ولاسبب يسعره ويوقده وتجد الروية موضعا لاجالة النظر والفكر في فضيلة الحلم واستعمال المكافأة ان كان صوابا أو التغافل ان كان حزما والذي يتلو معالجة هذا النوع من أمراض النفس معالجة الجبن الذى هو الطرف الآخر من صحتها . ولما كانت الاضداد يعرف بعضها من بعض وقد عرفنا الطرف الذى حددناه بحركة للنفس عنيفة قوية يحدث منها غليان دم القلب شهوة الانتقام فقد عرفنا الذى مقابله أعنى الطرف الآخر الذى هو سكون النفس عند ما يجب أن تحرك فيه وبطلان شهوة الانتقام وهذا هو سبب الجبن والخور

وتتبعه مهانة النفس وسوء العيش وطمع طبقات الانذال وغيرهم من الاهل والاولاد والمعاملين و قلة الثبات والصبر في المواطن التي يجب فيها الثبات وهو أيضا سبب الكسل ومحبة الراحة اللذين هما سببا كل رذيلة ومن لواحقه الاستخذاء لكل أحد والرضى بكل رذيلة وضيم والدخول تحت كل فضيحة في النفس والاهل والمال وسماع كل قبيحة فاحشة من الشتم والقذف واحتمال كل ظلم من كل معامل وقلة الانفة مما يأنف منه الناس * وعلاج هذه الاسباب واللواحق يكون باضدادها وذلك بأن توقظ النفس التى تمرض هذا المرض بالهز والتحريك فان الانسان لا يخلو من القوة الغضبية رأسا حتى تجلب اليه من مكان آخر ولكنها تكون ناقصة عن الواجب فهى بمنزلة النار الخامدة التى فيها بقية لقبول الترويح والنفخ فهي تتحرك لا محالة اذا حركت بما يلائمها وتبعث ما في طبيعتها من التوقد والتلهب * وقد حكي عن بعض المتفلسفين انه كان يتعمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرض لها ويركب البحر عند اضطرابه وهيجانه ليعود نفسه الثبات في المخوف ويحرك منها

القوة التي تسكن عند الحاجة الى حركتها ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه ولا يكره لمثل صاحب هذا المرض بعض المراء والتعرض للملاجاة وخصومة من يأمن غائلته حتى يقرب من الفضيلة التي هي وسط بين الرذيلتين أعني الشجاعة التي هي صحة النفس المطلوبة فاذا وجدها وأحس بها من نفسه كف ووقف ولم يتجاوزها حذرا من الوقوع في الجانب الآخر الذي علمناك علاجه * ولما كان الخوف الشديد في غير موضعه من أمراض النفس وكان متصلا بهذه القوة وجب أن نذكره ونذكر أسبابه وعلاجه فنقول ان الخوف يعرض من توقع مكروه وانتظار محذور والتوقع والانتظار انما يكونان للحوادث في الزمان المستقبل وهذه الحوادث ربما كانت عظيمة وربما كانت يسيرة وربما كانت ضرورية وربما كانت ممكنة والامور الممكنة ربما كنا نحن أسبابها وربما كان غيرنا سببها وجميع هذه الاقسام ليس ينبغي للعاقل أن يخاف منها أما الامور الممكنة فهي بالجملة مترددة بين أن تكون وبين أن لا تكون وليس يجب أن يصمم على أنها تكون فيستشعر الخوف منها ويتعجل مكروه التألم بها وهي لم تقع بعد ولعلها

لاتقع وقد أحسن الشاعر في قوله

وقل للفؤاد إن ترى بك نزوة

من الروع أفرج أكثر الروع باطله

فهذه حال ما كان منها عن سبب خارج وقد أعلمناك أنها ليست من الواجبات التي لا بد من وقوعها وما كان كذلك فالخوف من مكروهه يجب أن يكون على قدر حدوثه وانما يحسن العيش وتطيب الحياة بالظن الجميل والامل القوى وترك الفكر في كل مايمكن أن لايقع من المكاره وأما ما كان سببه سوء اختيارنا وجنايتنا على أنفسنا فينبغي أن نحترز منه بترك الذنوب والجنايات التي نخاف عواقبها ولا نقدم على أمر لا تؤمن غائلته فان هذا فعل من نسي أن الممكن هو الذي يجوز أن يكون ويجوز أن لايكون وذلك أنه اذا أتي ذنبا أوجنى جناية قدّر في نفسه أنه يخفي ولا يظهر أو لايخفى فيظهر الا أنه يتجاوز عنه أو لا تكون له غائلة وكأنه يجعل طبيعة الممكن واجبا كما أن صاحب القسم الاول يجعل أيضا الممكن واجبا الا أن هذا يأمن الجانب المحذور خاصة وذلك يخاف الجانب المأمون خاصة وأعني بهذا أن الممكن لما كان متوسطا بين الجانب

الواجب والجانب الممتنع صار كالشيء الذي له جهتان احداهما تلى الواجب والاخري تلى الممتنع ومثال ذلك خط ا ج ب فنقطة ا هى الجانب الواجب ونقطة ب هى الجانب الممتنع وموضع ج هو الممكن وبعده من الجانبين بعد واحد فله الى نقطة ا جهة وله الى نقطة ب جهة فاذا صار مستقبله ماضيا بطل اسم الممكن عنه وحصل امافى جانب الواجب واما فى جانب الممتنع وليس يصح مادام ممكنا أن يحسب لا من هذا الجانب ولا من ذلك الجانب بل نعتقد فيه طبيعته الخاصة به وهو أنه يمكن أن يصير الى ههنا أو الى هناك ولهذا قال الحكيم وجوه الامور الممكنة في أعقابها وأما الامور الضرورية كالهرم وتوابعه فعلاج الخوف منه أن نعلم أن الانسان اذا أحب طول الحياة فقد أحب لامحالة الهرم واستشعره استشعار مالا بد منه ومع الهرم يحدث نقصان الحرارة الغريزية والرطوبة الاصلية التابعة لها وغلبة ضديهما من البرد واليبس وضعف الاعضاء الاصلية كلها ويتبع ذلك قلة الحركة وبطلان النشاط وضعف آلات الهضم وسقوط آلات الطحن ونقصان القوى المدبرة للحياة أعنى القوة الجاذبة والقوة

المسكة والهاضمة والدافعة وسائر ما يتبعها من مواد الحياة وليست الامراض والآلام شيأ غير هذه الاشياء ثم يتبع ذلك موت الاحياء وفقد الاعزاء والمستشعر لهذه الاشياء الملتزم لشرائطها في مبدإ كونه لايخاف منها بل ينتظرها ويرجوها ويدعى له بها ويرغب الي الله فيها

فهذه جملة الكلام على الخوف المطلق ولما كان أعظم ما يلحق الانسان منه هو خوف الموت وكان هذا الخوف عاما وهو مع عمومه أشد وابلغ من جميع المخاوف وجب أن نبدأ بالكلام فيه فنقول * ان الخوف من الموت ليس يعرض الالمن لا يدري ما للموت على الحقيقة أولا يعلم الي أين تصير نفسه أولانه يظن أن بدنه اذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور وان العالم سيبقى موجودا وليس هو بموجود فيه كما يظنه من يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد أولانه يظن أن للموت ألما عظيما غير ألم الامراض التي ربما تقدمته وأدت اليه وكانت سبب حلوله ولانه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت أولانه متحير لايدرى على أى شي يقدم بعد الموت أولانه يأسف على ما يخلفه من المال والقنيات وهذه كلها

ظنون باطلة لاحقيقة لها أما من جهل الموت ولم يدر ما هو
على الحقيقة فانا نبين له أن الموت ليس بشيء اكثر من ترك
النفس استعمال آلاتها وهي الاعضاء التي يسمى مجموعها بدنا
كما يترك الصانع استعمال آلاته وان النفس جوهر غير جسماني
وليست عرضا وانها غير قابلة للفساد وهذا البيان يحتاج فيه
الى علوم تتقدمه وهو مبرهن مشروح على الاستقصاء فى
موضعه الخاص به ومن تطلع اليه ونشط للوقوف عليه لم يبعد
مرامه ومن قنع بما ذكرته فى صدر هذا الكتاب وسكنت
نفسه اليه علم ان ذلك الجوهر مفارق لجوهر البدن مباين له
كل المباينة بذاته وخواصه وافعاله وآثاره فاذا فارق البدن كما
قلنا وعلى الشريطة التى شرطنا بقى البقاء الذى يخصه ونقي من
كدر الطبيعة وسعد السعادة التامة ولا سبيل الى فنائه وعدمه
فان الجوهر لايفنى من حيث هو جوهر ولا تبطل ذاته وانما
تبطل الاعراض والنسب والاضافات التى بينه وبين الاجسام
باضدادها فأما الجوهر فلا ضد له وكل شيء يفسد فانما فساده
من ضده وقد يمكنك أن تقف على ذلك بسهولة من أوائل
المنطق قبل أن تصل الى براهينه وان أنت تأملت الجوهر

الجسمانى الذي هو أخس من ذلك الجوهر الكريم واستقريت حاله وجدته غير فان ولا متلاش من حيث هو جوهر وانما يستحيل بعضه الى بعض فتبطل خواصه وأعراضه منه شيئاً فشيئاً * فأما الجوهر نفسه فهو باق لا سبيل الى عدمه وبطلانه مثال ذلك الماء فانه يستحيل بخارا وهواء وكذلك الهواء يستحيل ماء ونارا فتبطل عن الجوهر أعراضه وخواصه وأما الجوهر من حيث هو جوهر فانه لا سبيل الى عدمه هذا فى الجوهر الجسمانى القابل للاستحالة والتغيير * فأما الجوهر الروحاني الذى لا يقبل الاستحالة ولا التغير فى ذاته وانما يقبل كمالاته وتمامات صوره فكيف يتوهم فيه العدم والتلاشي * وأما من يخاف الموت لانه لا يعلم الى أين تصير نفسه أو لانه يظن أن بدنه اذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه وجهل بقاء النفس وكيفية المعاد فليس يخاف الموت على الحقيقة وانما يجهل ما ينبغى أن يعلمه فالجهل اذاً هو المخوف اذ هو سبب الخوف وهذا الجهل هو الذى حمل الحكماء على طلب العلم والتعب به وتركوا لاجله اللذات الجسمانية وراحات البدن واختاروا عليه النصب والسهر ورأوا

أن الراحة التي تكون من الجهل هي الراحة الحقيقية وان التعب الحقيقي هو تعب الجهل لانه مرض مزمن للنفس والبرء منه خلاص لها وراحة سرمدية ولذة أبدية * ولما تيقن الحكماء ذلك واستبصروا فيه وهجموا على حقيقته ووصلوا الى الروح والراحة منه هانت عليهم أمور الدنيا كلها واستحقروا جميع مايستعظمه الجمهور من المال والثروة واللذات الحسية والمطالب التي تؤدي اليها اذا كانت قليلة الثبات والبقاء سريعة الزوال والفناء كثيرة الهموم اذا وجدت عظيمة الغموم اذا فقدت واقتصروا منها على المقدار الضروري في الحياة وتسلوا عن فضول العيش الذي فيه ماذكرت من العيوب ومالم أذكره ولانهامع ذلك بلانهاية وذلك ان الانسان اذا بلغ منها الى غاية تاقت نفسه الى غاية أخرى من غير وقوف على حد ولا انتهاء الى أمد وهذا هو الموت لاما نخاف منه والحرص عليه هو الحرص على الزائل والشغل به هو الشغل بالباطل ولذلك جزم الحكماء بأن الموت موتان موت ارادى وموت طبيعي وكذلك الحياة حياتان حياة ارادية وحياة طبيعية وعنوا بالموت الارادي اماتة الشهوات وترك التعرض لها وبالموت

الطبيعي مفارقة النفس البدن وعنوا بالحياة الارادية ما يسعى له الانسان لحياته الدنيا من المآكل والمشارب والشهوات وبالحياة الطبيعية بقاء النفس السرمدي بما تستفيده من العلوم الحقيقية وتبرأ به من الجهل ولذلك وصى أفلاطون طالب الحكمة بأن قال له مت بالارادة تحي بالطبيعة على ان من خاف الموت الطبيعي للانسان فقد خاف ماينبغي أن يرجوه وذلك ان هذا الموت هو تمام حد الانسان لانه حي ناطق ميت فالموت تمامه وكماله وبه يصير الى أفقه الاعلى ومن علم أن كل شيء هو مركب من حده وحده مركب من جنسه وفصوله وان جنس الانسان هو الحي وفصلاه الناطق والمايت علم انه سينحل الى جنسه وفصوله لان كل مركب لامحالة منحل الى ماتركب منه فمن أجهل ممن يخاف تمام ذاته ومن أسوأ حالا ممن يظن أن فناءه بحياته ونقصانه بتمامه وذلك ان الناقص اذا خاف أن يتم فقد دل من نفسه على غاية الجهل فاذاً الواجب على العاقل أن يستوحش من النقصان ويأنس بالتمام ويطلب كل مايتممه ويكمله ويشرفه ويعلي منزلته ويخلي رباطه من الوجه الذي يأمن به الوقوع في الاسر لامن الوجه الذي يشد

وثاقه ويزيده تركيبا وتعقيدا ويثق بأن الجوهر الشريف الالهى اذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسمانى خلاص بقاء وصفو لاخلاص مزاج وكدر فقد سعد وعاد الى ملكوته وقرب من بارئه وفاز بجوار رب العالمين وخالط الارواح الطيبة من أشكاله وأشباهه ونجا من أضداده وأغياره ومن ههنا يعلم أن من فارقت نفسه بدنه وهي مشتاقة اليه مشفقة عليه خائفة من فراقه فهي في غاية الشقاء والبعد من ذاتها وجوهرها سالكة الى أبعد جهاتها من مستقرها طالبة قرار مالا قرار له * وأما من ظن أن للموت ألما عظيما غير ألم الامراض التى ربما اتفق أن تتقدم الموت وتؤدي اليه فعلاجه أن نبين له أن هذا ظن كاذب لان الالم انما يكون للحي والحي هو القابل أثر النفس وأما الجسم الذى ليس فيه أثر النفس فانه لا يألم ولا يحس فاذا الموت الذي هو مفارقة النفس البدن لا ألم له لان البدن انما كان يألم ويحس باثر النفس فيه فاذا صار جسما لا أثر فيه للنفس فلا حس له ولا ألم فقد تبين أن الموت حال للبدن غير محسوس عنده ولا مؤلم لانه فراق مابه كان يحس ويتالم * فاما من خاف الموت لاجل العقاب

الذي يوعـد به فينبغي أن نبين له أنه ليس يخاف الموت بل يخاف العقاب والعقاب انما يكون على شيء باق بعد البدن الداثر ومن اعترف بشيء باق منه بعد البدن وهو لا محالة معترف بذنوب له وأفعال سيئة يستحق عليها العقاب ومع ذلك هو معترف بحاكم عدل يعاقب على السيئات لا على الحسنات فهو اذاً خائف من ذنوبه لا من الموت ومن خاف عقوبة على ذنب فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويجتنبه وقد بينا فيما تقدم أن الافعال الرديئة التي تسمى ذنوبا انما تصدر عن هيئات رديئة والهيئات الرديئة هي للنفس وهي الرذائل التي أحصيناها وعرفناك أضدادها من الفضائل فاذاً الخائف من الموت على هذه الطريقة ومن هذه الجهة فهو جاهل بما ينبغي أن يخاف منه وخائف مما لا أثر له ولا خوف منه وعلاج الجهل هو العلم فاذاً الحكمة هي التي تخلصنا من هذه الآلام والظنون الكاذبة التي هي نتائج الجهالات والله الموفق لما فيه الخير * وكذلك نقول لمن خاف الموت لانه لا يدري على ما يقدم بعد الموت لان هـذه حال الجاهل الذي يخاف بجهله فعلاجه أن يتعلم ليعلم ويشتاق وذلك أن من أثبت لنفسه حالا بعد الموت ثم لم يعلم ماتلك

الحال فقد أقر بالجهل وعلاج الجهل العلم ومن علم فقد وثق ومن وثق فقد عرف سبيل السعادة فهو يسلكها لامحالة ومن سلك طريقا مستقيما الى غرض صحيح أفضى اليه بلاشك ولامرية وهذه الثقة التى تكون بالعلم هي اليقين وهي حال المستبصر في دينه المستمسك بحكمته وقد عرفناك مرتبته ومقامه فيما سلف من القول * وأما من زعم أنه ليس يخاف الموت وانما يحزن على مايخلف من أهله وولده وماله ونشبه ويأسف على مايفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها فينبغي ان نبين له أن الحزن تعجل ألم ومكروه على مالا يجدي الحزن اليه بطائل وسنذكر علاج الحزن في باب مفرد له خاص لانا فى هذا الباب انما نذكر علاج الخوف وقد أتينا منه على مافيه مقنع وكفاية الا انا نزيده بيانا ووضوحا فنقول * ان الانسان من جملة الامور الكائنة وقد تبين فى الآراء الفلسفية أن كل كائن فاسد لا محالة فمن أحب أن لا يفسد فقد أحب أن لا يكون ومن أحب أن لا يكون فقد أحب فساد ذاته فكأنه يحب ان يفسد ويحب ان لايفسد ويحب أن يكون ويحب أن لايكون وهذا محال لايخطر ببال عاقل وأيضا فانه لو لم يمت

اسلافنا وآباؤنا لم ينته الوجود الينا ولو جاز ان يبقى الانسان لبقى من تقدمنا ولو بقى من تقدمنا من الناس على ماهم عليه من التناسل ولم يموتوا لما وسعتهم الارض وانت تتبين ذلك مما أقول هب ان رجلا واحدا ممن كان منذ أربع مائة سنة هو موجود الآن وليكن من مشاهير الناس حتى يمكن أن يحصل أولاده موجودين معروفين كعلى بن أبي طالب عليه السلام مثلا ثم ولد له أولاد ولأولاده أولاد وبقوا كذلك يتناسلون ولا يموت منهم احدكم يكون مقدار من يجتمع منهم في وقتنا هذا فانك تجدهم أكثر من عشرة آلاف ألف رجل وذلك أن بقيتهم الآن مع ماقدر فيهم من الموت والقتل الذريع أكثر من مائة الف نسمة في جميع الارض واحسب لمن كان فى ذلك العصر من الناس على بسيط الارض مثل هذا الحساب فانهم اذا تضاعفوا هذا التضاعف لم نضبطهم كثرة ولم نحصهم عددا ثم امسح بسيط الارض فانه محدود معروف لتعلم أن الارض حينئذ لاتسعهم قياما فكيف قعودا أومتصرفين ولا يبقى موضع عمارة يفضل عنهم ولامكان زراعة ولامسير لاحد ولاحركة فضلا عن غيرها وهذه مدة يسيرة من الزمان

فكيف اذا امتد الزمان وتضاعف الناس علي هذه النسبة فهذه حال من يتمنى الحياة الابدية للبدن ويكره الموت ويظن أن ذلك ممكن أو مطموع فيه من الجهل والغباوة فاذن الحكمة البالغة والعدل المبسوط بالتدبير الالهى هو الصواب الذي لا معدل عنه ولا محيص منه وهو غاية الجود الذى ليس وراءه غاية أخرى لطالب مستزيد أو راغب مستفيد والخائف منه هو الخائف من عدل الباري وحكمته بل هو الخائف من جوده وعطائه فقد ظهر ظهورا حسيا ان الموت ليس برديء كما يظنه جمهور الناس وانما الرديء هو الخوف منه وان الذى يخاف منه هو الجاهل به وبذاته وقد ظهر أيضا فيما تقدم من قولنا أن حقيقة الموت هى مفارقة النفس البدن وهذه المفارقة ليست فسادا للنفس وانما هى فساد المتركب وأما جوهر النفس الذى هو ذات الانسان ولبه وخلاصته فهو باق وليس بجسم فيلزم فيه مالزم فى الاجسام مما أوردناه قبيل بل لا يلزمه شيء من أعراض الاجسام أى لا يتزاحم في المكان لاستغنائه عن المكان ولا يحرص على البقاء الزمانى لاستغنائه عن الزمان وانما استفاد بالحواس والاجسام كما لا فاذا كمل بها ثم خلص منها صار الى

عالمه الشريف القريب الي بارئه ومنشئه تعالى وتقدس وهذا الـكمال الذى يستفيده في هذا العالم الحسى قد بيناه وعرفناك الطريق اليه بما سلف من القول فى هذا الباب وأنه السعادة القصوي للانسان وأعلمناك ضده الذي هو الشقاء الاقصى له وبينا مع ذلك مراتب السعادة ومنازل الابرار ودرجاتهم من رضوان الله وجنته التى هي دار القرار كما بينالك اضدادها من سخطه ودركاتهم من النار التى هى الهاوية بلا قرار نسأل الله حسن المعونة على مايقربنا منه ويبعدنا من سخطه انه جواد كريم رؤف رحيم

﴿ علاج الحزن ﴾

الحزن ألم نفساني يعرض لفقد محبوب أو فوت مطلوب وسببه الحرص على القنيات الجسمانية والشره الى الشهوات البدنيـة والحسرة على مايفقده أو يفوته منها وانما يحزن ويجزع على فقد محبوباته وفوت مطلوباته من يظن أن مايحصـل له من محبوبات الدنيا يجوز أن يبقى ويثبت عنده أو أن جميع مايطلبه من مفقوداتها لابد أن يحصل له ويصير في ملـكه فاذا أنصف نفسه وعلم ان جميع مافي عالم الـكون والفساد غير ثابت ولا

باق وانما الثابت الباقي هو ما يكون في عالم العقل لم يطمع في المحال ولم يطلبه واذا لم يطمع فيه لم يحزن لفقد مايهواه ولا لفوت مايتمناه في هذا العالم وصرف سعيه الى المطلوبات الصافية واقتصر بهمته على طلب المحبوبات الباقية وأعرض عما ليس في طبعه أن يثبت ويبقى واذا حصل له منه شيء بادر الى وضعه في موضعه وأخذ منه مقدار الحاجة الى دفع الآلام التي أحصيناها من الجوع والعري والضرورات التي تشبهها وترك الادخار والاستكثار والتماس المباهاة والافتخار ولم يحدث نفسه بالمكاثرة بها والتمني لها واذا فارقته لم يأسف عليها ولم يبال بها فان من فعل ذلك أمن فلم يجزع وفرح فلم يحزن وسعد فلم يشق ومن لم يقبل هذه الوصية ولم يعالج نفسه بهذا العلاج لم يزل في جزع دائم وحزن غير منتقص وذلك انه لا يعدم في كل حال فوت مطلوب أو فقد محبوب وهذا لازم لعالمنا هذا لانه عالم الكون والفساد ومن طمع من الكائن الفاسد ان لا يكون ولا يفسد فقد طمع في المحال ومن طمع فى المحال لم يزل خائبا والخائب أبدا محزون والمحزون شقي ومن استشعر بالعادة الجميلة ورضي بكل مايجده ولا يحزن لشيء يفقده لم يزل مسرورا سعيدا فان

ظن ظان ان هـذا الاستشمار لا يتم له أو لا ينتفع به فلينظر الى استشعارات الناس فى مطالبهم ومعايشهم واختلافهم فيها بحسب قوة الاستشعار فانه سـيرى رؤية بينة ظاهرة فرح المتعيشون بمعايشهم على تفاوتها وسرور أصحاب الحرف المختلفة بمذاهبهم على تباينها وليتصفح ذلك فى طبقة طبقة من طبقات الدهماء فانه لايخفي عليه فرح التاجر بتجارته والجندي بشجاعته والمقامر بقماره والشاطر[1] بشطارته والمخنث بتخنثه حتى يظن كل واحد منهم أن المغبون من عدم تلك الحالة حتى فقد بهجتها والمجنون من غبي عنها فحرم لذتها وليس ذلك الا لقوة استشعار كل طائفة بحسن مذهبها ولزومها اياه بالعادة الطويلة واذا لزم طالب الفضيلة مذهبه وقوي استشعاره وحسن رأيه وطالت عادته كان أولى بالسرور من هذه الطبقات الذين يخبطون في جهالاتهم وكان أحظاهم بالنعيم المقيم لانه محق وهم مبطلون وهو متيقن وهم ظانون ثم هو صحيح وهم مرضى وهو سعيد وهم أشقياء وهو ولى الله عز وجل وهم أعداؤه وقد قال الله عز من قائل (ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال

---

(١) من أعيا أهله خبثا اه م

الكندي فى كتاب دفع الاحزان مايدلك دلالة واضحة أن الحزن شئ يجتلبه الانسان ويضعه وضعا وليس هو من الاشياء الطبيعية * ان من فقد ملكا أوطلب أمرا فلم يجده فلحقه حزن ثم نظر في حزنه ذلك نظرا حكميا وعرف أن أسباب حزنه هي أسباب غير ضرورية وأن كثيرا من الناس ليس لهم ذلك الملك وهم غير محزونين بل فرحون مغبطون علم علما لاريب فيه أن الحزن ليس بضروري ولاطبيعي وان من حزن من الناس وجلب لنفسه هذا العارض فهو لامحالة سيسلو ويعود الى حاله الطبيعى فقد شاهدنا قوما فقدوا من الاولاد والاعزة والاصدقاء ما اشتد حزنهم عليه ثم لايلبثون أن يعودوا الى حالة المسرة والضحك والغبطة ويصيرون الى حال من لم يحزن قط ولذلك نشاهد من يفقد المال والضياع وجميع ما يقتنيه الانسان مما يعز عليه ويحزنه فانه لامحالة يتسلى ويزول حزنه ويعاود أنسه واغتباطه فالعاقل اذا نظر الى أحوال الناس فى الحزن وأسبابه علم أنه ليس يختص من بينهم بمصيبة غريبة ولايتميز عنهم بمحنة بديعة وان غايته من مصيبته السلوة وان الحزن هو مرض عارض يجري مجرى سائر الردا آت فلم يضع

لنفسه عارضا رديئا ولم يكتسب مرضا وضميا أعني مجتلبا غير طبيعي وينبغي أن نتذكر ما قدمنا ذكره من حال من يحيي بتحية على أن يشمها ويتمتع بها ثم يردها ليشمها غيره ويتمتع بها سواه فأطمعته نفسه فيها وظن أنها هبة له هبة أبدية فلما أخذت منه حزن وأسف وغضب فان هذه حال من عدم عقله وطمع فيما لا مطمع فيه وهذه حالة الحسود لانه يحب أن يستبد بالخيرات من غير مشاركة الناس والحسد أقبح الامراض واشنع الشرور ولذلك قالت الحكماء من أحب أن ينال الشر أعداءه فهو محب للشر ومحب الشر شرير وشر من هذا من أحب الشر لمن ليس له بعدو وأسوأ من هذا حالا من أحب أن لا ينال أصدقاءه خير ومن أحب أن يحرم صديقه الخير فقد أحب له الشر ويجب له من هذه الردا آت الحزن على ما يتناوله الناس من الخيرات وأن يحسدهم على ما يصلون اليه منها وسواء كانت هذه الخيرات من قنياتنا وما ملكناه أومما لم نقتنه ولم نملكه لان الجميع مشترك للناس وهي ودائع الله عند خلقه وله أن يرتجع العارية متى شاء على يد من شاء ولا سيئة علينا ولا عار اذا رددنا الودائع وانما العار والسيئة

أن نحزن اذا ارتجعت منا وهو مع ذلك كفر للنعمة لان أقل
مايجب من الشكر للمنعم أن نردّ عليه عاريته على طيب نفس
ونسرع الي اجابته اذا استردّها ولا سيما اذا ترك المعير علينا
أفضل ماأعارنا وارتجع أخسه قال وأعنى بالافضل مالا تصل
اليه يدولا يشركنا فيه أحد أعني النفس والعقل والفضائل
الموهوبة لناهبة لانسترد ولا ترتجع ويقول ان كان ارتجع
الاقل الاخس كما اقتضاه العدل فقد أبقى الاكثر الافضل
وانه لو كان واجبا أن نحزن على كل مانفقده لوجب أن نكون
أبدا محزونين فينبغي للعاقل أن لايفكر فى الاشياء النسارة
المؤلمة وأن يقل القنية مااستطاع اذ كان فقدها سببا الاحزان
وقد حكي عن سقراط أنه سئل عن سبب نشاطه وقلة حزنه
فقال لانني لا أقتنى مااذا فقدته حزنت عليه واذ قد ذكرنا
أجناس الامراض الغالبة التي تخص النفس وأشرنا الى
علاجاتها ودللنا على شفائها فليس يتعذر على العاقل المحب لنفسه
الساعى لها فيما يخلصها من آلامها وينجيها من مهالكها أن
يتصفح الامراض التى تحت هذه الاجناس من أنواعها
وأشخاصها فيداوي نفسه منها ويعالجها بمقابلاتها من العلاجات

والرغبة الى الله عز وجل بعد ذلك في التوفيق فان التوفيق مقرون بالاجتهاد وليس يتم أحدهما الا بالآخر

هذا آخر المقالة السابعة وهي تمام الكتاب والحمد لله رب العالمين والصلاة على النبي محمد وآله وأصحابه أجمعين وحسبنا الله ونعم المعين *

صحيفة ﴿ فهرست تهذيب الاخلاق ﴾

﴿ تم الفهرست ﴾